نقل النفط بأنابيب عربية

من الخليج الى المتوسط

د. أحمد مراد

تتوضع معظم مناطق انتاج النفط في المشرق العربي في الخليج العربي . وتتوضع مناطق استهلاكه في البلدان الاوروبية بصورة رئيسية . ولذلك احتلت مسألة نقل النفط العربي من مناطق الانتاج الى مناطق الاستهلاك أهمية كبرى ، ازدادت باستمرار مع اتساع الاستهلاك الاوروبي والانتاج العربي .

وقد كانت مسألة نقل النفط لزمن طويل ، تخص الشركات الاجنبية المنتجة باعتبارها مالكة للنفط . وعليه قامت شركة بترول العراق عام ١٩٣٤ باقامة خطين للأنابيب من حقل كركوك الى طرابلس في لبنان والى حيفا بفلسطين . فأدى ذلك الى ارتفاع الانتاج العراقي من النفط بسرعة . وقامت عام ١٩٤٨ باقامة خط اضافي من كركوك الى طرابلس ، اتبعته عام ١٩٥٢ بخط آخر اكبر ضخامة من كركوك الى بانياس . وكذلك قامت شركة الزيت

العربية الاميركية عام ١٩٥٠ باقامة خط انابيب من ابقيق الى صيدا واستطاعت المنافسة العالمية ببترولها .

وقد برزت اهمية نقل البترول العربي من منطقة الخليج مع ازدياد حجم الانتاج وزيادة الطلب على النفط العربي ، فدرس ممثلوا سبعة عشر شركة بترول عالمية في لندن سنة ١٩٥٧ اقامة خط انابيب من منطقة الخليج الى سواحل البحر الابيض المتوسط لكن العرب تصدوا فورا للموضوع . فظهرت هذه الفكرة في نفس العام في اجتماعات المجلس الاقتصادي العربي ، ووافقت لجنة خبراء البترول العربي عام ١٩٥٩ على انشاء شركة عربية لخطوط الانابيب تشترك فيها الدول الاعضاء في الجامعه العربية .

وفيما بعد غضت الشركات الاجنبية النظر عن هذا المشروع خوفا من تطورات الأحداث في المنطقة . كما اهملت الدول العربية تنفيـــذ المشروع لعدد من الأسباب . ورغم تعميق قناة السويس ظل قسم متزايد من النفط العربي المستخرج من مناطق الخليج ينقل الى الاسواق الاوروبية عن طريق رأس الرجاء الصالح . وقامت الشركات الاجنبية بتطوير استخراج النفط من المغرب العربي لتأمين الاستهلاك المتزايد غربي قناة السويس ، ووجهت اقساماً متزايدة من نفط الخليج الى شرقي السويس . وقد ابرز اغلاق قناة السويس عام ١٩٦٧ أهمية نقل نفط الخليج مرة اخرى . وتبلور ذلك في اتجاهات توسعية بترولية خارج الشرق الاوسط واتجاهات تقلصية نسبية في انتاج الكويت والسعودية وفي اتجاهات لرفع طاقات ناقلات النفط .

وتحاول ايران البدء بخط انابيب الاهواز ــ الاسكندرون لنقل النفط

الايراني (١) . كما عمدت « اسرائيل » الى انشاء خط ايلات عسقلان ، كما طرحت الجمهورية العربية المتحدة خط « سومد » لنقل النفط بين السويس والاسكندرية. ان مجموع هذه الاتجاهات لتشكل خسارة مادية خالصة لمنطقة المشرق العربي .

ان كل هذه الوقائع تطرح من جديد أهمية نقل النفط المنتج في منطقة الخليج العربي الى ساحل البحر الابيض المتوسط بواسطة خطوط انابيب . وهدف هذا البحث هو تقديم دراسة أولية لمشروع لاقامة خط او مجموعة خطوط انابيب عربية لنقل النفط الخام من منطقة الخليج العربي الى ساحل البحر الابيض المتوسط .

ويبدو ان نقل النفط العربي من مناطق الخليج يستلزم عدة خطوط للأنابيب ، يقوم الأول منها بنقل النفط من ساحل الاحساء في الجزيرة العربية السعودية ، ويقوم الثاني بنقل النفط من دولة الكويت ، ويقوم الثالث بنقل النفط من حقل الرميلة جنوب العراق عند استثمار هذا الحقل . وتجتمع الخطوط الثلاثة ضمن الصحراء الشامية جنوبي العراق لتتابع سيرها سوية عبر العراق وسورية الى ساحل البحر الابيض المتوسط . ان هذه الخطوط تستطيع ان تنقل النفط من امارات الخليج وقطر والبحرين والسعودية والمناطق المحايدة والكويت والعراق الى ساحل البحر (وقد بدأت المفاوضات فعلا بين الحكومتين السورية والعراقية لاقامة خط الرميلة — المتوسط) . ويمكن اضافة خطوط اضافية تسير بحاذاتها

---

(١) مازال الكونسورتيوم الايراني يقف حجر عثرة في وجه تنفيذ هذا المشروع.

عند الحاجة . كما يمكن إقامة خط إضافي الى جانبها لنقل النفط الايراني . وهكذا فالمشروع يمكن أن يقوم على خط واحد قابل للتطوير الى عدة خطوط ، كلما زاد عددها كان لهـــا وفورات عديدة وآثار اقتصادية أوسع ، بينما تبقى الدراسة الحقوقية قابلة للتطبيق .

ومن أجـــل اعطاء صورة واضحة عن المشروع سأقسم البحث الى ثلاثة أقسام :

- الدراسة الفنية للمشروع
- الدراسة الاقتصادية للمشروع
- الدراسة الحقوقية للمشروع

وسأبقى ، في هذه الاقسام الثلاثة في حدود الاجماليات ، تاركا الدراسة التعمقية لدراسة ملحقة .

أولا ــ الدراسة الفنية للمشروع

سأعرض في الدراسة الفنيـة للمشروع الى ناحيتين : ١) حساب تكلفة خط واحد من الأنابيب لنقل النفط الخام ٢) حساب تكلفة نقـل الطن الواحد من النفط الخام .

١ ــ حساب تكلفة خط واحد من الانابيب لنقل النفط الخام :

ان خطوط الانابيب المقترحة لن تكون بطول واحد . وقد اعتمدت خط أنابيب السعودية الذي ينتظر ان يكون بطول ١٧٠٠ كم وهو أطولها . وبنتيجة المقارنة الاقتصادية بين خطوط من اقطار مختلفة تبين أن من الأنسب اختيار انبوب بقطر ٥٢ انشا بطاقة ٥٠ ــ ٧٠ مليون طن سنوياً .

وانطلاقا من هذه المعطيات تكون مواصفات هذا الخط كالتالي :

المواصفات الفنية لخط انابيب لنقل النفط بطول ١٧٠٠ كم - ٥٢ انشا

نكتفي هنا بشرح المواصفات لخط أنابيب لنقل النفط بطاقة ٦٠ مليون طن سنوياً

استطاعة النقل طن / سنة	٦٠,٠٠٠,٠٠٠
استطاعة النقل طن/ساعة	٧,٥٠٠
استطاعة النقل م٢ / ساعة	٨,٧٠٠
مساحة مقطع الانبوب م٢	١,٢٢
السرعة الخطية للنفط م/ث	٢ (٦,٥ قدم / ث)
ضياع الضغط كغ / كم	٠,٢٣٥
ضياع الضغط الكامل للخط كغ / كم	٤٠٠
ضغط التشغيل كغ / سم٢	٨٠ - ٩٠
عدد محطات الضخ	٦
الاستطاعة النظرية للضخ حصان	١٣٠,٠٠٠
الاستطاعة العملية اللازمة للضخ حصان	١٨٥ ٠٠٠
الاستطاعة المركبة حصان	٢٥٠ ٠٠٠
نوع الفولاذ	× ٥٢
السماكة القصوى للانبوب مم	٢١
الوزن الاقصى للانبوب طن	١٠٣٠٠٠٠
الوزن العملي للانبوب طن	٧١٥٠٠٠
حجم مستودعات التخزين م٢	٢٤٠٠٠٠٠

مواصفات النفط الخام

الكثافة الوسطية على ١٥ درجة مئوية ٨٦و٠

اللزوجة الوسطية سنتي ستوك على ١٥ درجة مئوية ١٠

مواصفات الفولاذ

حد المرونة كغ / مم٢	٣٧
عامل الأمان	١و٤

وتبلغ التكاليف الاجمالية لخط الانابيب بالمواصفات السابقة الذكر مايلي (بملايين الدولارات الاميركية) .

ثمن الانبوب واصل مكان التركيب ٤٠٠ دولار/ طن	٢٨٦
التكاليف الاجمالية لتركيب الخط	١١٩
التكاليف اجمالية لمحطات الضخ	١٠٠
تكاليف الخطوط البحرية	١٨
مستودعات التخزين ١٥ دولار / م٣	٣٦
المجموع	٥٥٩
دراسة واشراف (٥ ٪)	٢٨
المجموع الاجمالي	٥٨٧

وهذه التكلفة الاجمالية محسوبة على اساس التنفيذ بواسطة شركات اجنبية وهي قابلة للتخفيض في حالة التنفيذ الجزئي بواسطة المقاولين العرب كما جرى في التجربة السورية .

٢ ــ حساب تكلفة نقل الوحدة من النفط الخام:

لابد لنا أولا من احتساب تشغيل خط الانابيب لنصل بالتالي الى حساب

كلفة نقل الوحدة من النفط الخام ، وفيما يلي حساب نفقات تشغيل خط الانابيب .
- استهلاكات : ١٦ سنة وسطياً ، أي ٦٫٥٪ سنوياً ١٥٥و٣٨ مليون دولار المبلغ

- الفوائد : ١٦ سنة وسطياً بفائدة ٦٪ على

كامل المبلغ	١٧٫٦١٠ مليون دولار
- أجور عمال	٣٫٠٠٠ مليون دولار
- قطع تبديل وصيانة : ٢٪ من قيمة الخط	١١٫٧٤٠ مليون دولار
- وقود للطاقة : ٢٤٠ الف طن × ١٢ دولار للطن	٣٫٠٠٠ مليون دولار
المجموع	٧٢٫٥٠٥ مليون دولار

وتكون اجرة نقل الطن الواحد $\frac{٧٣٥٠٥٠٠٠}{٦٠٠٠٠٠٠٠}$ = ١٫٢ دولار / طن

أو = ١٦٫٢ سنت / برميل

وهذا الرقم هو أعلى من التقديرات المعطاة حول تكاليف نقل النفط الخام بالانابيب بصورة عامة وهي[1] :

١٤ سنتا / برميل في خط قطره ٢٠ بوصة مسافة الف ميل

١٢ سنتا / برميل في خط قطره ٣٦ بوصة مسافة الف ميل

١١ سنتا / برميل في خط قطره ٤٢ بوصة مسافة الف ميل

ويرجع هذا الارتفاع في حسابنا بصورة أساسية الى أننا احتسبنا أقصى تكلفة محتملة للخط واستثماره بما فيه عامل ارتفاع الاسعار العالمية للفولاذ والتجهيزات الصناعية .

(١) راجع « مقارنة بين خطوط الانابيب والناقلات » مجلة النفط ، شباط ١٩٦٨

ثانياً ـــ الدراسة الاقتصادية للمشروع

تستوجب الدراسة الاقتصادية للمشروع معالجـــة جانبين : اولهما اقتصاديات المشروع بحد ذاته عن طريق مقارنة تكاليف النقل بخطوط الأنابيب مع تكاليف النقل بالناقلات البحرية، وثانيهما الآثار الاقتصادية التي يولدها المشروع في المنطقة العربية .

١ ـــ اقتصادية المشروع :

من اجل تقدير اقتصادية المشروع لابد على الأقل من : آ) تحديد الحاجة اليه ب) تحديد مقدار الربح الناجم عنه ج) تحديد مدة وامكان اطفاء تكاليف انشائه .

آ- الحاجة الى المشروع :

بلغت صادرات نفط الشرق الاوسط الى اوروبا مقدار ٢١٧،٥ مليون طن عام ١٩٦٦ . وحسب التقديرات الاشد تحفظا ، على الشرق الاوسط ان يرفع هذه الصادرات إلى ٣٦٦ مليون طن عام ١٩٧٥ والى حوالي ٤٥٠ - ٥٠٠ مليون طن عام ١٩٨٠ لمواجهة الحاجات هناك ، يضاف الى ذلك الاحتياجات المتزايدة لبلدان اوربا الشرقية .

ان طاقة قناة السويس لاتزيد على ١٠٠ مليون طن بعـــد التوسيع والتعميق (١٦٦،٦ مليونا عام ١٩٦٦) ، فاذا اضفنا اليها طاقة خطوط الانابيب الحالية (٧٥ مليون طن) وطاقة خط سومد (٦٠ مليون طن) فاننا نصل الى مقدار ٣٢٥ مليون طن كحد أقصى . وهذا يقل بمقدار ١٥٠ — ٢٠٠ مليون

طن بالمقارنة مع الطاقة اللازمة لعام ١٩٨٠ [١]. وتحاول ايران الاسراع بتنفيذ خط الأهواز - الاسكندرون تلبية لهذا الطلب .

ب - **تحديد الربح** : ان تحديد مقدار الربح الناجم عن المشروع يتضح عن طريق مقارنة تكلفة نقل البرميل الواحد من نفط الخليج العربي بناقلات البترول عبر رأس الرجاء الصالح أو عن طريق خطوط الأنابيب المقترحة .

مقارنة تكلفة نقل البرميل من نفط الخليج العربي[٢]

- أجور النقل البحري بناقلة ٢٠٠ الف طن من الخليج حتى شمالي أوروبا أو جنوبها ٣٩ سنت/برميل .

- أجور تكلفة نقل البرميل حتى شمالي أوروبا بواسطة خط أنابيب + ناقلة ٢٠٠ الف طن هو :

تكلفة النقل عبر خطوط الأنابيب من الخليج حتى البحر المتوسط : ١٦ر٢ سنت/برميل

أجور النقل من صيدا الى شمالي أوروبا : ١٢ سنت/برميل

المجموع ٢٨ر٢ سنت/برميل

وبذلك يكون الربح ١١ سنت/برميل

- تكلفة نقل البرميل حتى جنوب أوروبا بواسط خط أنابيب + ناقلة ١٠٠ الف طن هو :

---

(١) « خط أنابيب السويس - الاسكندرية ومشكلة النقل البترولي في البلدان العربية » - مجلة البترول والغاز العربي ، العدد ١٠ آب ١٩٦٩ (بالفرنسية)

(٢) أخذت أرقام النقل البحري من « مقارنة بين خطوط الأنابيب والنقالات » مجلة النفط ، شباط ١٩٦٨ .

تكاليف النقل عبر خطوط الأنابيب من الخليج حتى البحر المتوسط :
١٦٫٢ سنت/برميل
أجور النقل من صيدا الى جنوبي أوروبا : ٩ سنت/برميل
المجموع ٢٥٫٢ سنت/برميل

وبذلك يكون الربح ١٤ سنت/برميل

وكذلك يمكن ايضاح ربحية مشروع خطوط الأنابيب المقترح عن طريق بيان مقارنة فرق السعر المعلن بين الخليج العربي والساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط .

مقارنة الأسعار العالمية للنفط الخام (نيسان ١٩٧٠)

ثمن النفط الخام الخفيف كثافة ٣٤ – ٣٤٫٩ في رأس تنورة
١٫٨٠ دولار/برميل
ثمن النفط الخام الخفيف كثافة ٣٤ – ٣٤٫٩ في صيدا
٢٫١٧ دولار/برميل

فرق السعر المعلن للنفط الخام = ٠٫٣٧ دولار/برميل
يقابله تكلفة النقل بالأنابيب = ٠٫١٦ دولار/برميل
فيكون الربح في هذه الحالة ٠٫٢١ دولار/برميل

وإذا أخذنا بعين الاعتبار ان هناك خصماً على الأسعار المعلنة في صيدا دون رأس التنورة مقداره ٥٪ تصبح المقارنة كالتالي :

ثمن النفط الخام الخفيف كثافة ٣٤ – ٣٤٫٩ في رأس التنورة

١٫٨٠ دولار/برميل

ثمن النفط الخام الخفيف كثافة ٣٤ – ٣٤٫٩ في صيدا مع خصم ٥٪

٢٫٠٦ دولار/برميل

ويكون فرق السعر للنفط الخام = ٠٫٢٦ دولار/برميل

يقابله تكلفة النقل بالأنابيب = ٠٫١٦ دولار/برميل

ويكون الربح في هذه الحالة ٠٫١٠ دولار/برميل

يتضح مما سبق ان حالات الربح هي التالية :

الحالة الأولى	١١ سنت/برميل
الحالة الثانية	١٤ سنت/برميل
الحالة الثالثة	٢١ سنت/برميل
الحالة الرابعة	١٠ سنت/برميل

أي ان الربح يقع بين ١٠ – ٢١ سنت/برميل

ونعتقد ان الحالة الأكثر احتمالاً تقع بين ١٤ و ٢١ سنت/برميل وذلك لأن مقارنة أجور النقل بالأنابيب مع أجور النقل بالناقلات هي الطريقة الأكثر معقولية .

ج – اطفاء تكاليف الانشاء : ان اطفاء النفقات الاستثمارية للمشروع هو نتيجة لربحية المشروع واقتطاعات الاستهلاك وتسمى عادة مدة استرجاع رأس المال . ان خط الأنابيب المطمور والأعمال المدنية يفترض استهلاكها بعشرين عاماً اما محطات الضخ والخطوط البحرية فيفترض استهلاكها بعشر

سنوات ، وقد احتسبنا الاستهلاك تبعاً لذلك بمعدل وسطي قدره ١٦ سنة لمجموع الخط على أساس تكلفته الاجمالية .

سنفترض في الحساب ان الربح الصافي لنقل البرميل هو ١٤ سنت/برميل
أي ١٤ × ٤٤٠ مليون/سنة = ٦١٫٦ مليون دولار

مدة استرداد رأس المال = تكاليف الانشاء ÷ (الربح الصافي + الاستهلاك السنوي)

= ٥٨٧ ÷ (٣٨٫١٥+٦١٫٦) = ٦ سنوات تقريباً

٢ — الآثار الاقتصادية للمشروع :

يصعب حصر جميع الآثار الاقتصادية التي يولدها مشروع خطوط الأنابيب العربية المقترح وخاصة بسبب آثار المضاعف والمسرع ومدى تعدد خطوط الأنابيب . ولذلك سأؤكد بصورة خاصة على ثلاثة آثار : ١) الآثار الاقتصادية المباشرة للمشروع ٢) آثار المشروع على الاحتكار الدولي البترولي ٣) آثار المشروع على أسعار البترول العربي .

آ — تشتمل الآثار الاقتصادية المباشرة لمشروع خط الانابيب على تطوير عدد من النشاطات الاقتصادية في منطقة الشرق العربي .

فالمشروع يفترض ان يوجد آلاف فرص العمل الجديد في محطات الضخ بصورة دائمة عدا فرص العمل الوقتية في اقامة المشروع . كما يقيم عدداً من المستوطنات السكنية والمراكز الصناعية في الصحراء بعدد محطات الضخ . ويزداد

عدد العمال في المستوطنات ومراكز التشغيل والصيانة مع ازدياد عدد خطوط الانابيب في المشروع وزيادة عدد محطات الضخ .

وسيمكن المشروع من تحقيق ارباح كبرى للمنطقة تقع في حدود :

١٤ سنت / برميل × ٤٤٠ × ١٠^٦ برميلا / سنة = ٦١٫٦ مليون دولار / سنة .

إن هذه الارباح ليست بالارباح الكبرى نسبة للرأسمال الموظف، ولكنها ستتضاعف بعد انقضاء مدة استرجاع رأس المال البالغة ٦ سنوات تقريباً بحيث يصبح الوارد بحدود ١١٦ مليون دولار سنوياً . وهذا الربح هو واردات اضافية كلياً لصالح المنطقة يمكن ان تساهم في اعمارها الاقتصادي . ان مضاعفة عـــدد الخطوط يضاعف هذه الارباح ، كما ان مجموع هذه المبالغ يتحصل بالقطع الاجنبي ولذلك فإن له نتائج مناسبة على النشاط الاقتصادي . والامر الاشد أهمية هو امكانية تنظيم الانتاج البترولي العربي لصالح المنطقة اجمالاً .

ان مجموع هذه الآثار هي في صلب الاقتصاد العربي وهي تدعمه وتقويه وتزيد في درجة تحرره .

ويقدم هذا المشروع عدداً من المزايا للشركات المنتجة للنفط منها توفير تكاليف النقل الحالية بين مرافىء التصدير في الخليج العربي ومناطق الانتـــاج العميقة ، ومنها اختصار زمن النقل الى حد بارز يقوى من الخاصية التنافسية للبترول العربي .

ويؤدي هذا المشروع كذلك الى توفير ارباح مرور أو عائدات مرور لجميع الاقطار التي تمر الأنابيب منها حتى ولو كانت منتجة للنفط ، وهو ما تمتنع

الشركات الاجنبية حالياً عن دفعه . وستستفيد دول المصب من الخدمات المرافقة كعوائد و كفرص عمل .

ويمكن لهذا المشروع ان يزيد من ارباحه من خلال نقل النفط الايراني الى البحر الابيض المتوسط ، كما يمكن له ان يكون المورد الاساسي لبلدان اوروبا الشرقية التي تعمل الآن على اقامة خط انابيب من يوغسلافيا الى المجر .

إن إقامة المشروع يمكن ان تدعم تطور صناعة الصفائح اللازمة في كل من الجمهورية العربية المتحدة والجزائر اللتين يوجد لديها صناعات حديدية حالياً . كما انه سيساهم في تعمير البلاد التي بها خطوط الانابيب من خلال المشروعات المخرضة . وهذا سيؤدي ولاشك الى رفع مستوى معيشة الانســان العربي ، وسيكون ضماناً اكيداً لتقوية الكيان الاقتصادي للامة العربية .

وبالاختصار يبدو هذا المشروع مناسباً للاقطار المنتجة للنفط ولأقطار المرور ، كما انه يفيد الشركات في الزمن القصير .

ب – ان المكاسب الاقتصادية المباشرة لاتحتل في رأينا الدرجة الاولى ، بل الدرجة الثالثة في سلم اولويات أهمية المشروع . اما الدرجة الثانية فتحتلها ، في رأينا مسألة متابعة نقل النفط العربي في البحر .

لقد حاءت الاقطار العربية منذ زمن بانشاء اسطول لناقلات النفط . وتم في عام ١٩٦٧ وضع مشروع اتفاقية بانشاء الشركة العربيـــة لناقلات البترول وقعها عدد من الاقطار العربية ، وحدد رأسمالها بـ ٣٥ مليون جنيه استرليني . ان اقامة مشروع الانابيب المقترح سيمكن من ١) تقصير خطوط النقـل البحري ٢) الاستغناء عن الناقلات الكبيرة الحجم والعاليـــة الثمن . ٣) تأمين الحمولة بصورة دائمة للناقلات . ٤) تخفيف احتياج هذه الشركة لرأس المال . ان الشركة

العربية لناقلات البترول يمكن ان تنسق عملها مع مشروع الانابيب ، وبذلك فان مشروع خط الانابيب المقترح يعطل خط انابيب ايلات عسقلان ويسهل انشاء الشركة العربية لناقلات البترول ويقوي القدرات البترولية العربية ويدعم التعاون الاقتصادي العربي .

ج — الاثر الاقتصادي الناجم عن تثبيت اسعار النفط العربي ورفعها تحتل في رأيي الدرجة الاولى في سلم اهميات مشروع خطوط انابيب النفط .

فمن المعروف ان النفط العربي في المنطقة واقع بصورة رئيسية في أيدي الاحتكار الدولي للبترول[1] وتقوم الشركات الأجنبية التابعة لهذا الاحتكار الدولي باستخراج نفط المشرق العربي ، وهو الذي يقوم ، اما بأنابيبه ، أو بناقلاته المملوكة أو المستأجرة ، بنقل هذا النفط الخام الى الخارج ، حيث يقوم بتكرير جزء هام منه . وتقوم شركات الاحتكار الدولي للبترول ، المسيطرة على نفط المشرق العربي بنفسها بنقل ١٠٠ ٪ من انتاج البحرين والكويت والمملكة العربية السعودية ، و ٨٩ ٪ من نفط ايران و ٧١٫٢٥ ٪ من نفط العراق وقطر[2] .

وقد أمكن لشركات الاحتكار الدولي للبترول ، من خلال سيطرتها على الانتاج والنقل ، من تحديد أسعار البترول العربي لصالحها ، عن طريق نقل المركز المعتبر أساساً للتسعير من ايطاليا الى لندن الى نيويورك . وهذا أدى الى

---

(١) أحمد مراد « الاحتكارات الأجنبية في الوطن العربي » ، الطليعة المصرية العدد ٣ ، ١٩٧٠ — ولبيب شقير : الاحتكار الدولي للبترول ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العالية .

(٢) عبد الله الطريقي ، فاروق الحسيني ، نقل البترول العربي ، معهد الدراسات العربية ٩٦١ ص ٢٠ .

تخفيض اسعار النفط العربي تكراراً منذ الحرب العالمية الثانية حتى اليوم إن أسعار النفط العربي تحدد اليوم وكأننا نبيعه للولايات المتحدة الاميركية وذلك على الشكل التالي :

سعر طن بترول خليج عربي = سعر طن بترول فنزويلا

+ اجرة شحن الطن من فنزويلا الى نيويورك

– اجرة شحن الطن من نيويورك الى الخليج العربي

ولما كان ٨٠ ٪ من نفط الخليج العربي يذهب الى أوروبا فإن أسعار النفط المعلنة للخليج العربي تقل عن الأسعار العالمية بمقدار أجور النقل من أوروبا الغربية الى نيويورك . ان الفارق يقع بحدود ٦٠ سنت للبرميل الواحد ، ولما كانت أسعار النفط المعلنة قد احتسبت على أساس تكاليف التشغيل ، فإن ارتفاع أجور النقل عن مستوى تكاليف التشغيل وكذلك تطور حجم الناقلات يزيدان من أرباح النقل . ويترافق هذا مع اعطاء خصمات على الأسعار المعلنة ، وفي ذلك استنزاف كامل للنفط العربي لأن الاحتكار الدولي للنفط يملك النفط العربي عند بيعه وعند شرائه وعند نقله ، فهو البائع والشاري والناقل [١] .

ان إقامة خطوط الأنابيب المقترحة تكسر حلقة النفط هذه ، وتمكن العرب من وضع يدهم على نفطهم . وبذلك يمكن لهم فرص شرائهم للنفط العربي المستخرج من قبل الشركات الأجنبية بالأسعار المعلنة وبيعه البلدان الأوروبية المستهلكة . وهذا يؤدي الى حصة صافية قدرها ٥٠ سنتا في البرميل الواحد . وهذا يعني ان هذا المشروع يضع الوطن العربي ، ويوحده ، في مواجهة تحد

(١) للتفصيل راجع : عبد الله الطريقي ، فاروق الحسيني ، المرجع السابق ص ٣٩ – ٦٣ .

كبير هو الصراع الحتمي مع الشركات البترولية . ولذلك فإن حل مسألة أسعار النفط العربي بالذات هي الأثر الاقتصادي الاول والحاسم لمشروع خطوط الأنابيب المقترح .

ثالثاً — الدراسة الحقوقية لمشروع خطوط الأنابيب العربية :

يمكن من الناحية الحقوقية والتطبيقية تنفيــذ المشروع بطريقتين : أولاهما استقلال كل قطر عربي بتنفيذه ، وبالتالي بملكيته ، جزء الخط الموجود في أراضيه ، وثانيها اعتماد اسلوب « المشروع الدولي المشترك » لتنفيذ هـذا المشروع ، وبالتالي لملكيته . وسواء اتبعت هذه الطريقة أو تلك تبرز أمامنـا مسألة تمويل المشروع كاحدى المسائل البارزة في التنفيذ .

١ — استقلال كل قطر بجزء من المشروع

يقوم هذا الاسلوب على اتفاق الحكومات العربيـة التي يمر الأنبوب بأراضيها على اقامة هذا المشروع وتعهد كل منها باقامة الجزء المار بها مع محطات الضخ الخاصة به ، وكذلك تشغيله وصيانته بالتعاون مع الحكومات الأخرى . ان مسألة تمويل وتنفيذ الخط تصبح بذلك مسألة تخص كلا من الحكومات لوحدها ، ويمكن لكل منها ان توجد الطريق المناسب لذلك . وعليه فان ملكية الخط في كل قطر هي لهذا القطر بالذات . ويتقاضى كل قطر مبالغ معينة لقاء الخدمة التي يقدمها نتيجة مرور النفط بانابيبه . ويقوم كل قطر بتشغيل القسم الخاص بـــه بالتنسيق مع الأقسام الاخرى ، كما هو الحال في تشغيل السكك الحديدية بين البلدان المختلفة . وقد اتبع هذا الاسلوب في اقامة وتشغيل خط بترول الصداقة بين الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية .

ان هذا الشكل الحقوقي ذو فوائد عديدة ، منها ١ - استقلالية كل قطر بلكية وتشغيل قسم الخط الواقع في أراضيه ، ٢ . واقامة الخط من قبل الأقطار المشتركة بنسبة طوله في أراضي كل قطر و ٣ - تحقيق المنفعة لجميع الاقطار المشتركة بنسبة طول الخط في كل قطر . لكن هذا الشكل لا يبدو لي مناسبا لتحقيق هذا المشروع بالذات لعدد من الأسباب ، منها ١ - انه لا يمكن من مشاركة الاقطار العربية التي لا يمر البترول فيها ٢ . لا يمكن من مشاركة الاقطار التي يمر بها الخط الا بحدود طول هذا الخط و ٣ - يعقد التعاون في تمويل المشروع بين أقطار الخليج الغنية والاقطار الاخرى الفقيرة نسبيا و ٤ - لا يمكن من متابعة تطوير المشروع من خط واحد الى عدة خطوط ومن نطاق النقل بالأنابيب الى متابعة النقل بالبواخر ، كما ان هذا الاسلوب لا يحقق درجة متطورة من التعاون الاقتصادي العربي .

٢ - المشروع العربي المشترك :

ان المشروع الدولي المشترك هنا يقتصر على الأقطار العربية ، ولذلك فهو مشروع عربي مشترك . ان احد اشكال المشروع الدولي المشترك هو « المشروعات التي تشترك في انشائها دولتان أو اكثر بقصد ممارسة نشاط اقتصادي يعود بالنفع على جميع الشركاء ، ويحتاج في العادة الى استثمار طويل الأجل وتنظيم مشترك يقتصر الأمر فيه على رسم سياسة عامة او التنسيق بين سياسات متباينة ، بل يتعدى ذلك الى الممارسة الفعلية والتشغيلية للنشاط عن طريق هيئة لها كيان مستقل عن الدول الاطراف . فهذه اذن مشروعات دولية بالمعنى الصحيح سواء من ناحية أصحاب رأس المال فيها ، أو من ناحية انتاجها والمصالح التي تبتغي تحقيقها

أو من ناحية طبيعة النشاط الذي تمارسه ، بل كثيراً مايلحق وصف « الدولية » بالوجود القانوني للمشروع وان اقتضت اعتبارات الملاءمة العملية احياناً ربط المشروع من الناحية القانونية بدولة طرف عن طريق منحه جنسيتها او اخضاعه بصورة اضافية لنظامها القانوني » (١).

لقد اعتمدت جامعة الدول العربية والمجلس الاقتصادي العربي اجمالاً اسلوب المشروع العربي المشترك عندما اقرت العديد من المشروعات العربية المشتركة المتعددة الاطراف . والى جانب الدوافع العامة التي تبرر الاخذ بهذا الاسلوب فان انقسام الاقطار العربية الى مجموعتين تتمتع واحدة بفائض في رأس المال مع ضعف امكانات الاستثمار وتعاني الاخرى من عجز في رأس المال مع اتساع امكانات الاستثمار يؤكد ضرورة اللجوء الى هذا الاسلوب . يضاف الى ذلك ضرورة السير في تحقيق اندماج بين اقتصادات الاقطار العربية . ويؤمن هذا الاسلوب ضماناً ضد الاخطار غير التجارية لحركة رؤوس الاموال بين الاقطار العربية . ان اقامة المشروعات المشتركة تتم بموجب اتفاق دولي يولد التزامات دولية واضحة ويمكن ان ينظم بحيث يخرج عن سلطة أي دولة طرف فيه ويعفى من القيود الواردة في تشريعاتها .

لقد اعتمد عند تأسيس الشركة العربية لخطوط انابيب البترول لعام ١٩٦٠ اسلوب المشروع الدولي المشترك وتضمن الاحكام اللازمة لاقامة هذا المشروع . ولكن المشروع افترض مبدئياً أن تساهم الدول العربية بنسب

(١) راجع في الاشكال القانونية للمشروعات الاقتصادية الدولية والمشاكل القانونية التي تواجه هذه المشروعات ، ابراهيم شحاته ، « المشروعات الاقتصادية الدولية المشتركة ١٩٦٨ » من ابحاث الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية .

متساوية في رأس المال . وبذلك لايمكن قانوناً اعتبار الشركة قائمة الا اذا وقع عقدها ٦ أعضاء من ثمانية . ان أحد الأعضاء هو « أي حكومة عربية ترغب المساهمة » ولذلك لايمكن تأمينه الا في المراحل المتقدمة وهكذا فان تلكؤ عضوين اضافيين يؤخر المشروع كلية . وهذا ماجرى . وعليه فإن النقطة القاتلة للمشروع تكمن هنا بالذات . وهذا يستدعي اعادة النظر بعقد تأسيس الشركة العربية لخطوط انابيب البترول واعطائه المرونة المناسبة .

التنمية والتطور السكاني

في القطر العربي السوري

يحيى عرودكي

تميز العقدان الأخيران من القرن الحالي باهتمام بالغ بمواضيع التنمية الاقتصادية والاجتماعية ليس فقط من قبل البلدان النامية ، وانما ايضاً من قبل البلدان المتقدمة صناعياً .

ولكن ماذا تعني التنمية ؟؟ هل هي عكس التخلف ؟؟ أو هي زيادة الدخل القومي ؟؟ أم هي تطوير لحياة المجتمع ومستوى معيشته ؟؟

تقول الأمانة العامة للأمم المتحدة عن التنمية بأنها (الحل الطبيعي للتخلف) ويعرفها بعض الاقتصاديين بأنها (نمو وتغير في النواحي الاجتماعية والاقتصادية) . ويرى آخرون بأنها (عملية متكاملة وديناميكية) في تطور مجتمع

ما،تتفاعل جوانبها تفاعلاً متوازناً ، وأن هذا التفاعل ضروري لئلا يصاب المجتمع بمشكلات تحول دون عملية التنمية أوتعرقلها .

وإذا كانت التنمية تعتبر الحل الطبيعي للتخلف ، فما هي مظاهر التخلف التي نقصدها ؟؟ أو بالأحرى من هي البلدان التي تتبدى فيها هذه المظاهر ؟؟

مظاهر التخلف وعناصره المشتركة

لن نخوض في أبحاث نظرية حول التخلف ، وانما سنوضح العناصر المشتركة والأسباب والمشاكل المتشابهة التي تعاني منها الدول النامية والتي طبعتها بطابع التخلف ، ويأتي في مقدمة ذلك :

١ – ضعف الاستثمار الزراعي .

٢ – تأخر الصناعة وعدم وجود قطاع صناعي متطور

٣ – ضعف مستوى المعيشة وانخفاض مستوى الدخل القومي .

٤ – ضعف الانتاجية لدى السكان نتيجة سوء التغذية والمناخ والظروف الصحية السيئة وعدم توفر الاختصاص الكافي لديها ، وعدم التوسع في استعمال الآلة .

٥ – عدم تطور الحياة الاجتماعية وانخفاض مستواها نتيجة ضعف مستوى التعليم العام ووجود نسبة عالية للأمية .

٦ – ارتفاع نسبة التوالد وازدياد عدد السكان بنسبة غير متكافئة مع زيادة الدخل القومي . وعدم الاستفادة من مختلف الطاقات البشرية في الانتاج .

٧ ـ كون الاقتصاد الوطني مرتبط على الغالب باقتصاديات البلدان المتقدمة بشكل تابع لها .

٨ ـ وجود قطاع تجاري ضخم يستنزف معظم موارد البلاد في استيراد السلع الاستهلاكية .

والتخلف لايقتصر على العروق الملونة (السوداء أو الصفراء) فهناك بلدان من العرق الأبيض أو الاسمر كاليونان وتركيا واسبانيا ولبنان من زمرة البلدان النامية ، وهناك بلدان متقدمة صناعياً يقطنها عدد لابأس به من السمر أو السود أو الصفر كالولايات المتحدة واليابان وجنوب أفريقيا .

والتخلف لايقتصر أيضاً على الدول الحديثة العهد بالاستقلال ، فهناك دول نامية ـ كأفغانستان وتركيا والسعودية والشيلي والحبشة ـ كانت مستقلة منذ القديم .

واذا كانت بعض الدول النامية لاتملك الثروات المعدنية أو كانت مواردها المالية محدودة لضعف انتاجها ، فان هنالك دولاً نامية لديها من هذه الثروات والموارد ، كالكويت والسعودية وليبيا وفنزويلا والكونغو مثلاً .

مفارقات مذهلة بين البلدان المتخلفة والبلدان المتقدمة :

ويعود اهتمام البلدان بموضوع التنمية الى رغبتها الملحة وسعيها لدخول القرن العشرين(١) . ذلك أن عدداً كبيراً من البلدان النامية لايزال يعيش في القرن الماضي في عدد من نواحي حياته الاجتماعية والاقتصادية ، التي انحدرت اليه

(١) في الوقت الذي باشرت فيه الدول المتقدمة البحث عما سيكون عليه حالها في القرن الحادي والعشرين .

وورثها نتيجة لأوضاع التخلف التي حالت دون مواكبته لسير الحضارة والتقدم ، ونتيجة للظروف التي فرضها الاستعمار عليه والتبعية التي خلفه في اطارها ، فبقي مفتقراً الى توفر الشروط المسبقة لدخول مرحلة التصنيـع .

وتشير احصاءات الأمم المتحدة إلى أن ثلثي سكان العالم تقريباً يعيشون في البلدان النامية ، ومع ذلك فان الثلث الباقي يمتلك وحده ٥/٦ الدخل العالمي .

كما تشير إلى أن نحو (٥٨٪) من سكان العالم يستهلكون أقل من (١٥) غراماً من البروتين يومياً في حين أن (١٧٪) منهم فقط يزيد استهلاكهم عن (٣٠) غراماً يومياً .

وإذا ما أخذنا بالتعريف الذي يعتبر البلد ذي الدخل الشخصي الوسطي في حدود (١٠٠) دولار هو بلد فقير جداً ، والذي يصل دخله الى (٢٥٠) دولار هو بلد فقير ، أما الذي يبلغ دخله (٧٥٠) فهو بلد متوسط ، وذلك الذي يزداد دخله عن هذا الحد يعتبر من بلدان الدخل العالي ، فان سكان العالم يتوزعون كالآتي:

٩٩٠ مليون في البلدان الفقيرة جداً   ١١٥٠ مليون فقيرة

٣٩٠ مليون متوسطة الدخل   ٨١٠ مليون ذات دخل عالي .

وغني عن القول أن تجاوز التفاوت بين معدلات الدخل للبلدان النامية والبلدان المتقدمة صناعياً يتطلب تحقيق معدل للتنمية يزيد عن (٥٪)،وهو المعدل الذي كان مساوياً لذلك في فترة ١٩٥٠ – ١٩٥٤ ، والذي انخفض بعد ذلك الى (٤٫٥٪) خلال فترة ١٩٥٥-١٩٦٠ ، والى (٤٪) خلال فترة ١٩٦٠ - ١٩٦٤ ، ولا يتوقع أن يزيد في العالم الحالي ١٩٧٠ عن (٣٫٥٪) . وحتى الآن لم تحدد

بشكل علمي وقاطع الأسباب لهذا الانخفاض المستمر ، إلا أنه من الثابت أن ذلك يعود لبقاء اقتصاديات تلك البلدان زراعية متخلفة من جهة ، ولممارسة الدول الاستعمارية لسياسة نهب خيرات هذه البلدان بأشكال مختلفة من جهة اخرى ، ولإبقاء اقتصاديات البلدان المذكورة تابعة لها من جهة ثالثة . أو بما تفتعله من الحروب والنزاعات وحالة التوتر في مناطق عديدة من العالم ، وبصورة خاصة في أراضي البلدان النامية ، أو بما تحيكه من الدسائس والمؤامرات والانقلابات في هذه البلدان ، أو بما تقيمه من الحكومات التي تعمل تبعاً لمصالح الفئات التي تتفق ومصالح الدول الاستعمارية من جهة رابعة .

فاذا ما علمنا أن نحو ثلاثين دولة من أصل ثمانين دولة متخلفة من أعضاء هيئة الأمم المتحدة ، تعتمد على تصدير سلعة واحدة للحصول على ما يقارب من نصف مواردها من العملات الأجنبية وكثيراً منها يعتمد على سلعتين فقط . وأن معدلات الاستثمارات في التنمية في هذه البلدان انما تعتمد بصورة رئيسية على وضع ونتيجة هذه المحاصيل في الأسواق الدولية . كما أن ما تكسبه البلدان المذكورة من العملات الأجنبية من الصادرات يعادل أربع أمثال ما تحصل عليه من القروض والمعونات من الخارج ، فإنه يتضح أن كل ذلك من شأنه أن يجعل البلدان النامية ضعيفة وغير قادرة على اقامة القاعدة الاقتصادية المتطورة لدى كل منها ، والتي يمكن أن تسهم في ثبات معدل دخولها القومية وفي زيادة هذا المعدل من عام لآخر ، ما لم تعمد الى تحقيق تنمية سريعة ومتوازنة . ويقول (غبرييل أردان) بهذا الخصوص [إن الدول النامية لا تخرج من التخلف الذي تعيش فيه من غير توجيه الجماهير الشعبية باستمرار ، وتعبئة الطاقات الانتاجية لهذه الشعوب ،

وتحقيق اصلاح جــذري في اسس البناء الاقتصادي ، والقضاء على المشروعات والمصالح الخاصة الكبرى سواء أكانت زراعية أو صناعية أو مالية] .

مصلحة الدول النامية في تجاوز مرحلة التخلف :

وهذا يعني أنه من اجل تحقيق التقدم الاقتصادي لهذه البلدان فانه يتوجب عليها الاعتماد بالدرجة الأولى على جهودها الخاصة وتعبئة واستغلال مواردها، فهذه الجهود هي التي تحدد معدل النمو وتشكل الأساس لتحديد المعونة الخارجيــة واستعمالها بكفاءة ، خصوصاً بعد أن ارتفع ثمن بطاقة الدخول الى المجتمع الصناعي عما كان عليه في القرن الماضي ، نتيجة ارتفاع كلفة التقدم العلمي والتقني وازدياد متطلبات رأس المال . ولهذا كان لابد من العمل على تحسين الجهود الاقتصادية في البلدان النامية بمقدار كبير من أجل الاقلال من الاعتماد على المعونات والقروض الخارجية قدر المستطاع والتخفيض من هذه الديون والفوائد المرتفعة السعر عليها، والتي قدرت ، في عام ١٩٦٨ ، بنحو (٤٠) مليار دولار واجبة التسديد على هذه البلدان مع الديون المترتبة للبلدان المتقدمة والمنظمات الدولية ، وهذا يعني أن أكثر من $\frac{١}{١٠}$ موارد البلدان النامية من العملات الصعبة يقتضي تخصيصه لسداد هذه الديون والفوائد بدلاً من استخدام هذه المبالغ في مشاريع تنمية جديدة . ومن المقدر بعد (١٥) عاماً أن يتعادل رقم الديون والفوائد المترتبة الأداء على البلدان المذكورة مع ما تتلقاه من المعونات والاستثمارات الخارجية ، بحيث يصبح تصدير رأس المال اليها شيئاً اقرب الى العدم اذا لم تستطع هذه البلدان أن تزيد نسبة التنمية لديها .

مصلحة الدول المتقدمة في التمييز لدى الدول النامية :

في ضوء ما تقدم يتبدى بوضوح مـــدى رغبة الدول المتقدمة صناعياً واهتمامها بموضوع التنميه الاقتصادية في الدول النامية . فهي من جهـة تحاول أن تقدم جانباً من حاجة هذه التنمية من الأموال على شكل قروض نقدية أو بضائع، مستفيدة من ارتفاع سعر الفائدة التي تحصل عليها ، أو من فرض أسعار عالية على ما تصدره اليها من الآلات والتجهيزات والمواد وكذلك من ربط البلدان النامية المدينة لها بعجلتها نتيجة هذا الارتفاع في أسعار الفائدة والبضائع التي تصدرهـا اليها ، ونتيجة قبول سداد هـــذه الديون والفوائد بمحاصيل تلك البلدان بأسعار منخفضة ، أو بالتدخل أحياناً في تحديد وجهة استعمال هذه القروض في مشاريـع لا تتضارب مع مصالحها من جهة أخرى .

ومن خلال اهتمام الدول النامية والدول المتقدمة بموضوع التنمية الاقتصادية يثير خبراء التغذية في العالم مشكلة تزايد السكان في البلدان النامية بنسب أعلى من نسب زيادة الانتاج الزراعي لديها . حيث يتوقعون ألا يزيد معدل هـــذه الزيادة سنة ١٩٨٥ عن ٨٥٪ في حين أن حاجتها للغذاء خـلال هذه الفترة سوف تصل الى (١٢٠٪) أي أن وتيرة زيادة السكان هي أعلى من وتيرة زيادة انتاج الغذاء . ولهذا كان يترتب عليها من أجل رفع وتيرة زيادة الانتاج الغذائي أن تباشر عملية تنمية اقتصادية سريعة وعالية المعدل .

البلدان العربية تأخذ بأسباب التنمية :

ومن المعروف أن الأقطـــار العربية ، الفقير منها والغني بموارده من الثروات الطبيعية والنفطية ، تصنف في زمرة البلدان النامية . فاقتصادياتها مازالت

اقتصاديات زراعية متخلفة ، على الرغم مما حققه بعضها من خطوات في مجال تطوير هذه الاقتصاديات ، سواء من حيث التوسع في استخدام الآلة والاسمدة والطرق الحديثة في الزراعة ، أو من حيث اقامة عدد من المشاريع الصناعية – معظمها من الصناعات الاستهلاكية – أو زيادة دخلها القومي من عام لآخر أو غير ذلك من الخطوات الاخرى . وهي بحاجة ماسة لتحقيق التنمية السريعة والمتوازنة ، بهدف اقامة القاعدة الصناعية الواسعة لديها واستثمار ثرواتها ورفع مستوى معيشة مواطنيها وزيادة دخولهم الفردية وبالتالي رفع معدل دخولها القومية ، بما يخلصها من التخلف ومن التبعية الاقتصادية للدول المتقدمة الصناعية ، ويحررها من التسلط الاستعماري ويدعم استقلالها السياسي ويوفر لها امكانات الصمود وتحرير الارض العربية المغتصبة ولكن هذه التنمية لا بد لها من أجل تدعيم القوى العربية من أن تنطلق من القوى الذاتية الكامنة في الامة العربية بالدرجة الاولى .

بين مرحلة الاستقلال ومرحلة التنمية في القطر العربي السوري :

ولقد وعى القطر العربي السوري واقعه هذا ، وبدأ يستشف صورة مستقبله من خلال ما كانت أحواله عليه ، وما يجب أن تصبح في ضوء تطلعاته نحو تحقيق التقدم والنمو اللذين يؤكدان استقلاله وتحرره التامين ، ويؤهلانه للمساهمة في نهضة الامة العربية ووحدتها ، وفي دعم صمودها وتقدم الحضارة الانسانية . وذلك مروراً بمرحلة الانحطاط التي عاشها خلال حقبة السلطة العثمانية ثم الانتداب الفرنسي عليه حتى حقق الجلاء عام ١٩٤٦ ، التي قاسى خلالها الفقر والحرمان وأورثته التخلف ، ثم بمرحلة ما بعد الاستقلال حتى ثورة الثامن من

آذار ١٩٦٣ ، التي شهد فيها القطر تنفيذ بعض المشروعات ، كالهاتف الآلي والاذاعة وميناء اللاذقية ومستودعات ومصفاة البترول ومشروع الغاب ومياه حلب وحفر الآبار وغيرها، التي تم تمويلها ضمن اطار الميزانية العامة العادية وبواسطة القروض من المصرف المركزي والسلف المقدمة من قبل الخزينة . كما شهد فيها مبادرة القطاع الخاص لاقامة بعض المشاريع الزراعية والعمرانية والصناعية كالتوسع بزراعة القطن والحبوب والأرز وكاستخراج السكر وصناعة الزجاج والاسمنت والغزول والمنسوجات والصابون والمعلبات وغيرها والتي وظفت فيها الاموال التي جناها الكثيرون من التجارة خلال فترة الحرب العالمية الثانية أو من نشاطاتهم في الخارج ، بحيث وجـــدوا في اقامة مثل هذه المشروعات امتداداً لطموحهم ورغباتهم في زيادة ثرواتهم وأرباحهم ، من خلال ما كان يتيحه لهم ذلك النظام الاقتصادي القائم آنذاك ، والذي تغلب عليه الحرية أكثر مما يغلب عليه التوجيه أو التخطيط ، بالاضافة الى خضوعه للظروف السياسية غير المستقرة التي مر بها القطر منذ نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ .

وفي عام ١٩٥٤ قدم خبراء من المصرف الدولي للانشاء والتعمير تقريراً الى الحكومة السورية يتضمن برنامجاً انمائياً لمدة ست سنوات وبكلف نحو (١٩٠٣) ملايين ليرة سورية ويهدف الى تحقيق عدد من مشاريع الري واستصلاح الاراضي وتنمية الزراعة والنقل والمواصلات والتعليم والارتقاء بالادارة العامة والدفاع بالدرجة الاولى ولم يكن نصيب القطاع الصناعي منه سوى (١٢) مليون ليرة سورية . وقد اعتبر هـــذا البرنامج وما تضمنه من اقتراحات حول السياسات الواجب اتباعها في مختلف الحقول والنشاطات الاقتصادية كأساس فيما بعد عند وضع الميزانية الاستثنائية عام ١٩٥٥ ، التي عرفت فيما بعد باسم برنامج السنوات

السبعة ، وقد بلغت الاعتمادات المدرجة فيه نحو (٦٦٠) مليون ليرة سورية كان نصيب القطاع الزراعي والري نحو (٢٢١) مليون وقطاع النقل والمواصلات نحو (١٨٥) مليون وقطاع الصناعة (١١٧) مليون وتوزع الرصيد البالغ (١٣٧) مليون بين القطاعات الاخرى . وقد رافق اصدار هذا البرنامج احداث جهازين اقتصاديين للتنمية هما المجلس الاقتصادي الاعلى ، ومؤسسة الانماء الاقتصادي .

وعلى اثر عقد اتفاقية التعاون الاقتصادي والفني مع الاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٧ التي تعهد بها البلد المذكور بتقديم الأموال اللازمة لدراسة وتنفيذ بعض المشروعات الانمائية الهامة كالتنقيب عن البترول وانشاء السكك الحديدية وغيرها، فقد صدر في ايلول ١٩٥٨ برنامج خاص بالانماء الاقتصادي للسنوات العشر التالية قدرت تكاليفه بنحو (٢١٤٠) مليون ليرة سورية، وبلغ نصيب الزراعة والري والكهرباء منه نحو (١٤١٦) مليون ونصيب قطاع المواصلات (٣٦٥) مليون وقطاع الصناعة والبترول (١٦٠) مليون والباقي وقدره (١٥٣) مليون توزع على القطاعات الأخرى . كما لحظ البرنامج أيضاً قيمة اقساط القروض والفوائد الخارجية واحتياطي تسديد هذه القروض والفوائد في حدود مبلغ (٥٥٤)مليون ليرة وذلك بالاضافة الى المبالغ الآنفة الذكر .

كما أحدثت بذاك العام وزارة التخطيط القومي ، وخولت صلاحيات المجلس الاقتصادي الأعلى ومؤسسة الانماء الاقتصادي . وتبع ذلك اصدار البرنامج الأول للتصنيع في هذا القطر وقد تضمن انفاق مبلغ (٥٦٠) مليون ليرة سورية منه (٢٦٦) مليون للمشروعات البترولية و (٢١٧) مليون مليون للصناعات التحويلية والباقي وقدره (٧٧) مليون خصص لمشروعات الكفاية الانتاجية والتدريب المهني والتعدين وغيرها .

ويمكن أن نلحظ وضع وتطور الدخل القومي في هذا القطر خلال الفترة الواقعة بين أعوام ١٩٥٣ و ١٩٥٧ من خـــلال الأرقام التالية بالأسعار الثابته لعام ١٩٥٣ :

(١٧٥٥) مليون عام ١٩٥٣ و (١٧٦٢) مليون عام ١٩٥٥ و (٢٢٨٥) مليون عام ١٩٥٧ (٢٠٣٧) مليون عام ١٩٥٤ و (٢١٥٥) مليون عام ١٩٥٦ .

ولكن مرور القطر بمواسم زراعية سيئة خلال السنوات الثلاث التالية نتيجة الجفاف الذي عم أرجاءه آنذاك (وما نجم عن ذلك من إنخفاض في قيمة الصادرات وتزايد عجز الميزان التجاري قد أدى لإنخفاض الدخل القومي عما بلغه سابقاً إذ لم تتجاوز قيمة هذا الدخل الـ (١٩٨٠) مليون عام ١٩٥٨ و (٢٠٠٥) مليون عام ١٩٥٩ و (٢٠٠٢) مليون عام ١٩٦٠ . وكان من الطبيعي تبعاً لذلك ولتوفر الرغبة في تجاوز هذه الأوضاع التي مرت بها الحياة الاقتصادية في البلاد ، أن تظهر الحاجة الملحة لوضع خطة إنمائية تحدد بموجبها الأهداف الاقتصادية والاجتماعية في القطر على المدى القريب والبعيد .

القطر العربي السوري والبدء بمرحلة الخطط الخمسية :

وقد تم في عام ١٩٦٠ وضع الخطة الخمسية الأولى لأعوام ١٩٦١–١٩٦٥ في ضوء الأهداف الاجتماعية والاقتصادية للبلاد التي حددت للسنوات العشرة القادمة بالآتي :

١ – مضاعفة الدخل القومي من (٢٤٠٠) مليون في سنة الأساس الى (٤٨٠٠) مليون في السنة العاشرة .

٢ – تحقيق تنمية مستقرة تؤدي لتفادي الهزات الاقتصادية والآثار التضخمية

٣ – تحسين توزيع الدخل بين المواطنين .

وقد تضمنت تلك الخطة إنفاق مبلغ (٢٧٢٠) مليون ليرة خلال خمس سنين ، وجرى توزيع هذا المبلغ على المشروعات المختلفة بحيث بلغت حصة القطاع العام منه (١٧٢٠) مليون والقطاع الخاص (١٠٠٠) مليون . ويلاحظ بأن الزراعة والري وإستصلاح الأراضي قد استأثرت بنحو (١١٠٠) مليون من مجموع الخطة ثم يأتي بعدها قطاع الصناعة والبترول والكهرباء والتعدين حيث خصص له نحو (٥٠٩) مليون ليرة ، وقطاع النقل والمواصلات وكان نصيبه في حدود مبلغ (٥٣٧) مليون ، وتوزع الباقي وقدره (٥٨١) مليون على القطاعات الأخرى، بشكل ينمو معه الدخل بمقدار (٩٦٠) مليون ليرة خلال هذه الفترة ، وتصل قيمته في عام ١٩٦٥ الى (٣٣٦٠) مليون ليرة سورية . وبالتالي يؤدي لزيادة الاستهلاك الخاص من (١٧٢٥) مليون في سنة الأساس الى (٢٣٢٠) مليون في السنة الخامسة للخطة .

كما يتيح تشغيل عدد ملحوظ من القوة البشرية بحيث يرتفع حجم القوة العاملة من (١٥٣٠) ألف عامل الى (١٧٢٠) ألف عامل في عام ١٩٦٥ . كما يزداد دخل الفرد السنوي وسطياً من (٥٢٧) ليرة الى (٦٥٦) ليرة سورية في العام المذكور .

وقد رافق البدء بتنفيذ الخطة الخمسية الأولى وتلاه مجموعة من الاجراءات والتحولات الاقتصادية والاجتماعية في هذا القطر ، فمن صدور قانون تنظيم التخطيط ذي الرقم ٢٣٢ لعام ١٩٦٠ ، والذي اعتبر الخطة أساساً للنشاط الاقتصادي والاجتماعي في الدولة ، الى تأميم بعض المؤسسات الصناعية وتعريب المصارف

وشركات التأمين ، الى تطبيق أحكام قانون الاصلاح الزراعي المتضمن حدود الملكية الزراعية القصوى وتوزيع الأراضي المستولى عليها على الفلاحين، الى فرض نظام الرقابة على العملات الأجنبية وتطبيق مبادىء وأسس جديده في الاستيراد لتخفيف عجز الميزان التجاري وتوفير ماتحتاجه عملية تنفيذ الخطة من القطع النادر، وغير ذلك من التنظيمات الأخرى .

ثورة الثامن من آذار تولي التنمية عنايتها :

وبمجيء ثورة الثامن من آذار ١٩٦٣ بدأت التنمية في هذا القطر تأخذ اتجاها جديداً ، وذلك بحكم المبادىء التي قامت بموجبها والأهداف التي أخذت على عاتقها تحقيقها ، وخاصة في النطاق الاقتصادي . فلقد جاء في المنهاج المرحلي :«أن القضية التي تواجه البلاد انما تتمثل باحداث تنمية اقتصادية سريعه ومتوازنة وبأقل التكاليف البشرية والمادية . خصوصاً وأن الاقتصاد يجب أن يعتبر أمراً جدياً، كما يجب ان يعالج بروح المسؤولية وبصورة علمية بعيدة عن الأهواء والرغبات الشخصية، وأن تتسم المعالجة بالاستقرار والثبوت ، وأن تتسلح بأحدث ماتوصل اليه العلم في هذا المجال» .

وقد بادرت الثورة الى اعادة النظر بأجهزة التخطيط وبقانون الاصلاح الزراعي ، واتجهت الى توسيع حجم القطاع العام عن طريق تأميم الجانب الهام من القطاع الصناعي وكامل قطاع المصارف وشركات التأمين وجانب كبير من قطاع التجارة الخارجية وتوسعت في تنفيذ المشروعات الانمائية وخاصة فيما يتعلق بانشاء السدود واستصلاح الأراضي والتنقيب عن النفط واستخراجه واستثماره، وزيادة الطاقة الكهربائية وزيادة طول شبكة الخطوط الحديدية وطرق المواصلات،

واقامة مطار دمشق الدولي ومرفأ طرطوس وخط أنابيب البترول من قره تشوك الى قرب المرفأ المذكور، وتوسيع مصفاة البترول في حمص، واقامة عدد من المصانع وتوسيع القائم منها، بالاضافة الى توسيع نطاق التعليم وتوفير المياه والنور لأرجاء وقرى عديدة في هذا القطر. وغير ذلك من الانجازات الأخرى.

تلك هي أبرز المشاريع والمنجزات التي حققتهـــا التنمية الاقتصادية والاجتماعية في القطر العربي السوري، خلال هذه الفترة التي انقضت على بدء تمتعه بالاستقلال أو بدء أخذه بالخطط الانمائية بهدف تغيير واقع التخلف الذي يعيشه، وتحسين مستوى معيشة مواطنيه. وغني عن البيان، أن هذه الفترة لاتعتبر طويلة في حياة الأمم، أو حتى بالنسبة لما تتطلبه عملية التحويل الاشتراكي التي اعتمدتها الثورة كسبيل لتحقيق التنمية التي تتطلع الى تحقيقها في هذا القطر.

التنمية تستهدف الانسان أولاً وأخيراً:

وكما هو معروف، فان التنمية ليست هدفاً بذاتها، وانما هي الوسيلة لتأمين المستوى الذي يليق بكرامة المواطن وتوفير الطمأنينة له في مجتمع تسود فيه العدالة ويعم فيه الخير على الجميع.

وهذا يعني أن الهدف الأول والأخير للتنمية إنما هو الانسان، وبجهوده تتحقق التنمية المرجوة ومن أجل تحسين مستوى معيشته وتوفير الحياة الأفضل له توضع خطط التنمية، وتبذل الجهود لتنفيذها، ولهذا يعتبر أثمن الوسائـــل والامكانات المتاحة في أي بلد لبلوغ هذه الغاية. ومن هنا كانت علاقة السكان وتطورهم بالتنمية، ومدى ماتتوصل إليه من الأهـداف. ويقول المثل الصيني القديم (إذا أردت أن تزرع لسنة فازرع قمحاً، واذا أردت أن تزرع لعشر سنوات فازرع شجراً أما اذا أردت ان تزرع لمائة سنة فازرع رجالاً).

ويؤكد الواقع ماذهب اليه رجال الاقتصاد من أن النمو الاقتصادي ليس رهناً فقط بزيادة رأس المال واتساع رقعة الأرض ووفرة الثروات والخيرات بل هو رهن بهذا كله ، مضافاً اليه جهد الانسان والتنظيم . فالأيدي العاملة وخاصة الفنية منها تشكل العنصر الأساسي من عناصر الانتاج ، والاستفادة من جميع الطاقات المتاحة في ميدان العمل تعكس نتائج هامة على زيادة ونمو الانتاج .

والتنمية الاقتصادية المخططة ليست مجرد عمل اقتصادي ، وانما هي عمل اجتماعي في المقام الأول ، ولذلك فان ربط القوى العاملة ربطاً صحيحاً بخطط الانتاج من شأنه الاسهام بشكل جيد بازالة مختلف العقبات التي تعترض تنفيذ خطط التنمية كما أن تعبئة القوى البشرية بشكل منظم يعتبر شرطاً أساسياً للقضاء على عقبات نمو الانتاج وتطوره .

التطور السكاني ودوره في التنمية :

ولقد احتل موضوع التطور السكاني وعلاقته بالتنمية اهتمام عدد من العلماء والمفكرين منذ القديم ، فلقد تعرض له ابن خلدون في مقدمته الشهيرة عند بحثه عن أحوال العمران البشري والاجتماع الانساني ، ومن قبله أفلاطون وأرسطو. وتطورت هذه الأبحاث في العصور الحديثة وأصبحت جزءاً من علم (الديموغرافيا) وعلم (المورفولوجيا) وتناولها بالشرح والتفصيل العديدون مثل (وور كهايم) و (جون غرونت) و (كيتله) و (أميل لوفاسور) و (مالتوس) وكان لهذا الأخير نظريته المشهورة في تزايد السكان وعلاقتها بزيادة انتاج الغـذاء فهو يرى أن عدد السكان يتضاعف خلال خمس وعشرين سنة في شكل سلسلة هندسية أي ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ إلى آخره ، في حين لاتزداد مقادير الغذاء في أجود الأحوال إلا وفق السلسلة العددية أي ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ الى آخره . ولذلك فان

من شأن هذه الزيادة غير المتوازنة حدوث انفجار سكاني في العالم وبالتالي أن يعم الجوع في أرجائه بعد ذلك . في حين يرى (أدولف كوست) أن التطور الانساني والتقدم الحضاري أجمع انما يتحقق ويسير تبعاً لازدياد السكان العددي . ومع ذلك فان آراء مالتوس لاتزال تجد صدى لها حتى الآن لدى البعض وفي عدد من الدراسات والأبحاث عن التطور السكاني في العالم ، وخاصة في البلدان النامية ، وعن التنمية ومتطلباتها ، وعن الانتاج وتزايده ، وعن مشكلة الجوع في العالم الثالث وسبل مكافحته ، وغير ذلك من المشكلات والمواضيع الأخرى .

ومازال العديد من الديموغرافيين الاقتصاديين والمهتمين بعلم الاجتماع يتحدثون عن الانفجار السكاني المتوقع ، وعن مخاطره وظواهره . مستندين الى عدد من الحقائق والوقائع . فقبل الميلاد تطلب مضاعفة سكان الأرض آلاف السنين الا أن الحال تبدل فيما بعد بينما كان سكان العالم في عصر الميلاد في حدود (١٦٠) مليون نسمة ، فان هذا العدد قد استغرق المضاعفة نحو (٩٠٠) عام وبعد ذلك بنمو (٨٠٠) عام أصبح في حدود (٦٠٠) مليون ولم يستغرق مضاعفة هذا العدد سوى (١٥٠) عاماً ،أي أنه بلغ سنة (١٨٠٠) نحو (١٢٠٠) مليون ، وبعد مائة عام ـ أي عام ١٩٥٠ ــ تضاعف وأصبح في حدود (٢٤٠٠) مليون ويقدر أن يصل عام ٢٠٠٠ أي بعد (٥٠) عاماً الى (٦٠٠٠) مليون . وتساهم البلدان النامية ــ ومعظمها في أفريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية ــ مساهمة فعالة في هذه الزيادة ، فلقد بلغ المعدل لدى بعضها أكثر من ٣،٥٪ سنوياً ، ويبلغ عدد سكان هذه البلدان نحو ٢/٣ سكان العالم ، ومن المقدر أن يصل عام

(٢٠٠٠) الى $\frac{٤}{٥}$ سكان العالم ، تبعاً لارتفـاع معدل المواليد وانخفاض معدل الوفيات .

واذا كان بعض رجال الاجتماع والاقتصاد يتوجسون خيفة من تأثير ازدياد السكان على التنمية الاقتصادية في البلدان النامية ، لأن الاقتصاد القومي فيها عاجز عن استيعاب مثل هذه الزيادة لضعف مقدرتها على استخدام مصادرها على الوجه الأفضل . فانه يجب ألا يغيب عن البال أن زيادة السكان في البلدان المذكورة ليست وحدها سبب التخلف فيها ، وانما لعب الاستعمار القديم والحديث الدور الأكبر في استمرار هذا التخلف ، بدليل أن زيادة السكان في الهند بين أعوام ١٨٧١ و ١٩٤١ كانت حدود (٥٢٪) بينما كانت في نفس الفترة في حدود (٥٧٪) في بريطانيا و (٢٠٪) في اليابان و (٣٢٠٪) في الولايات المتحدة الامريكية . ثم إن كثافة السكان في بعض المناطق المتخلفة ضئيل جداً ، فهو يبلغ فرداً واحداً في الكيلومتر المربع في بعض انحاء أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، بينما يصل الى (٣٥٠) نسمة في هولندا ، وغني عن البيان الاشارة الى مدى الفرق بين مستوى معيشة السكان في تلك الانحاء والمناطق وبين مستواه في البلدان المذكور .

إن هذه الحقائق على ما فيها من تباين ، لاتدع مجالاً لاسقاط موضوع تنظيم التطور السكاني وتعبئة القوة البشرية وتحويلها من الجانب السلبي الى الجانب الايجابي ، بشكل تنقل معه من كونها خطراً يتهدد العالم بالجوع إلى عامل خير يوفر له التقدم والنمو من خلال مساهمتها في زيادة الانتاج واستغلال خيرات الطبيعة وثرواتها .

فليست التنمية مجرد قرارات من السلطة باجراء استثمارات معينة ، ولكنها عملية شاملة قد تستغرق حقبة تاريخية كاملة من حياة الأمة ، من أجل تحسين جدي في مستوى معيشة أفرادها ، عن طريق بناء اقتصادها القومي بشكل متوازن النمو ، وقادر على اشباع الحاجات المتزايدة كماً وكيفاً لهؤلاء الأفراد . فعملية التنمية إذاً ، عبارة عن عملية تعبئة الفائض الاقتصادي لاحداث التراكم الضروري للانتاج الموسع ، ولما كانت القوة البشرية المنتجة غير المستخدمة تدخل في حساب هذا الفائض ، فإنه من اللازم استخدامها .

العوامل العديدة المؤثرة في التطور السكاني :

ولكن عملية الاستخدام هذه ترتبط بشكل وثيق بالتطور أو النمو السكاني في البلد المعني . وهذا يرتبط بدوره بعدد من العوامل المؤثرة فيه :

— كالعامل الديني ، إذ تحث مختلف الأديان على زيادة النسل عن طريق الزواج ، في حين تدعو بعض الفرق والطوائف الدينية الى عـــدم الزواج كما كان الحال لدى الصابئة أو لدى بعض قدماء الفرس ، أوبعض سكان المكسيك والبيرو .

— وكالعامل السياسي ، إذ يرى بعض رجال السياسة في زيادة السكان قوة ودرعاً لحماية الوطن ، ومظهراً من مظاهر اتساع سلطان الدولة على عدد كبير من رعاياها ، في حين يرى آخرون في تحديد عدد السكان ، تمكيناً لها وللحكام من ادارة أحوال البلاد وتوفير العيش الرغيد للمواطنين .

— وهناك العامل الاقتصادي ، فبعض الاقتصاديين (كما لتوس) و (شارل جيد) و (أدولف لندري) يرون أن زيادة السكان سبيل الرفاهية ، لأن

الانسان مركز الطاقة ، وهذه تتصرف على شكل عمل ، والعمل منتج ، ولولاه لبقيت خزائن الأرض مكتومة ومواردها مدفونة ، كما يرون أن كيفية استغلال هذه الثروات والموارد ونمط الانتاج مقرونان بحجم السكان وكثافتهم ، ومن شأن ذلك تحقيق التقدم والابتكار .

— كما أن هنالك العامل الجغرافي، فطيب الاقليم واعتدال المناخ وعذوبة المكان من دواعي زيادة السكان . كما ان ضيق الأرض وقسوة الطبيعة قدتكون أحياناً دافعاً لبذل جهود كبيرة للبناء والتقدم كما جرى بالنسبة لمقاومة الإنسان للطبيعة في هولندا في امكنة أخرى من العالم .

هذا بالاضافة الى عدد من العوامل الأخرى النفسية منها والبيولوجية والمرفولوجية وغيرها . إلا أنه على الرغم من تعدد هذه العوامل فان معظم الباحثين الماديين يركزون على العامل الاقتصادي بالدرجة الأولى .

ولقد قسم العلماء الديموغرافيون التطور السكاني الى درجات ثلاث من حيث معدل الولادات . فاعتبرت ضعيفة تلك البلدان التي يكون فيها هذا المعدل أقل من ٢٪ ووسطاً تلك التي يتراوح المعدل لديها بين ٢ — ٣ ٪ وقوية تلك التي يزيد المعدل لديها عن ٣٪ .

التطور السكاني في القطر العربي السوري :

والقطر العربي السوري ، الذي يصنف في زمرة البلدان النامية كان حتى عام ١٩٦١ يعتبر من زمرة البلدان الوسط ، ولكنه أصبح فيما بعد من الزمرة القوية حيث بلغ معدل الولادات لديه في عامي ١٩٦٧ و ١٩٦٨ ٣٫١٦٪ ثم ٣٫١٨ ٪ .

وهذا التطور في معدل الولادات قد انعكس على عدد السكان ، فبعد أن كان هـــذا العدد في عام ١٩٤١ في حدود (٢٠٦٩٦٠٧٢٠) نسمة منهم ١٠٣٢٦٠٤٣٦ نسمة من الذكور، و ١٠٣٣٤٠٢٨٤ نسمة من الاناث فقد أصبح في عـــام ١٩٥١ في حدود (٣٠٣٢٩٠٢٣٥) نسمة وفي عام ١٩٦١ في حدود (٤٠٩٧٢٠٣١٦) نسمة ، وفي عام ١٩٦٧ بلغ (٥٠٧٩٨٠٨٧٥ نسمة كما بلغ عام ١٩٦٨ (٥٠٩٦٤٠٠٦٦) نسمة ووصل الى (٦٠٢٤٤٠٤١٨) نسمة عام ١٩٦٩ منهم (٣٠١٧٠٠٦٠٢) نسمة من الاناث . هـذا عدا السكان الأجانب واللاجئين من اخواننا الفلسطينيين الذين بلغ عددهم عام ٩٦٧ نحو (١٧٥٠٧١٠) نسمة . وفي دراسة أجراها المكتب المركزي للاحصاء عام ١٩٦٨ تبين أن معدل النمو السكاني في هذا القطر هو في حدود ٢٩ بالألف سنوياً . وان هـذا المعدل يمكن اعتماده حتى ايلول من هـذا العام حيث تقوم حالياً الاستعدادات لإجراء تعداد جديد للسكان في الموعد المذكور ومن شأن هذا التعداد ان يلقي أضواء جديدة على هذا الموضوع ، ويتيح الإعتماد على أرقام ومعـدلات أكثر وثوقاً من تلك المبنية على التقديرات والافتراضات .

ويبلـغ متوسط كثافة السكان في القطر العربي السوري نحو (٣٣) شخصاً في الكيلو متر المربع ، الا انها تختلف من محافظة لأخرى ومن مدينة لمدينـــة أخرى ومن الغرب الى الشرق ومن الساحل الى الداخل ومن مجاري الأنهار والمياه الى جوف الصحراء. فبينما تعتبر محافظة اللاذقية في مقدمة المحافظات السورية من حيث متوسط الكثافة حيث بلغ عام ١٩٦٧ ١٦٨ شخصاً بينما بلـغ في محافظة أدلب ٧٠ وحلب ٧٦ ودرعا ٦٠ والقنيطرة ٥٧ ودمشق ٥٨ وحماه ٥٦ والسويداء ٣١ وحمص ١٣ والحسكة ١٢ ودير الزور ٩ والرقة ٦ اشخاص . فان

مدينة حلب تعتبر أكثر المدن السورية كثافة ، حيث بلغ معدلها في نفس العام نحو (٤٨٨٩) شخصاً وتليها دمشق (١٢٣٩) ثم اللاذقية (١٨٠) فادلب(١١١) فحماه (٩٩) فدرعا (٧٠) والقنيطرة (٥٧) فالسويداء (٥٦ فحمص (٣٩) فدير الزور (١٣) فالرقة (٩) والحسكة (٨) أشخاص .

ويلاحظ ان عدد الذكور في جميع المحافظات يزيد عن عدد الإناث بنسب متفاوتة ما عـــدا محافظتي طرطوس ودرعا حيث بلغ عدد الذكور في الأول (٢٤٥٢٣) وعدد الاناث (٢٤٧٣٦) وبلغ في الثانية عدد الذكور (١٣٩٩٨) وعدد الاناث (١٤١٨٣) . كما يزيد عدد الاناث عن الذكور في بعض منـاطق المحافظات الأخرى كمنبج ورأس العين وشهبـــا وازرع . وكانت نسبة عدد الذكور الى مجموع سكان القطر عـام ١٩٦٧ في حدود ٥٠٫٩٥ ٪ والاناث ٤٩٫٠٥ ٪

ويتوزع سكان القطر تبعاً لأعمارهم بين الفئات المتعددة التالية ، حيث يتشكل ٤٦٫٤١٪ منهم من الذين لم يتجاوزوا ١٤ سنة و ١٥٫٩٢٪ ممن تتراوح اعمارهم بين ١٥ — ٣٤ سنة و ٣٠٫١٥٪ بين ٢٥—٥٩ سنة و ٢٫١٦٪ بين ٦٠ — ٦٤ سنة و ٥٫٠١ ٪ مافوق الـ ٦٤ سنة ، وذلك تبعاً للتعداد الجاري عام ١٩٦٠ ولا يظن انه قد طرأ تحول ملحوظ بعده وحتى الآن على هذه النسب .

ولا زال سكان الريف يشكلون أكـثر من نصف سكان القطر ، على الرغم من تزايد الهجرة منه الى المدن، وعلى الرغم من عدم توفر احصاءات دقيقة عن حركة هذه الهجرة ، فانه من المقدران نسبة سكان المدن قد بلغت عام١٩٦٧ نحو ٤٧٫٥٪ من مجموع سكان القطر .

وتشكل القوة العاملة نحو (٢٨٫٤٨) بالمائة من مجموع السكان في العام

المذكور ، وكانت في عام ١٩٦٣ في حدود (٢٣،٦٣٪) فلقد كان مجموع هذه القوة في نفس العام بحدود (١،٢٤٤) مليون يعمل من أصلها في الزراعة نحو (٥٦٤) ألف نسمة فارتفع مجموع القوة المذكورة عام ١٩٦٧ الى (١،٦٥٢) مليون يعمل منها في الزراعة نحو (٩٨٦) ألف نسمة أي نحو (٥٩٪) من مجموع القوة العاملة ، والباقي يعمل في وجوه النشاطات الأخرى .

انعكاسات التنمية على التطور السكاني في القطر العربي السوري :

من خلال هذا الجانب للصورة الديموغرافية للقطر العربي السوري ، كان لا بد لنا من تبني انعكاسات التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي باشرها هذا القطر ولا يزال مستمراً فيها ، على التطور السكاني الذي تم حتى الآن وما يتوقع أن يكون عليه في المستقبل من جهة ومن انعكاسات هذا التطور على التنمية المشار اليها من جهة ثانية .

لقد تضمنت الخطة الخمسية الاولى اتفاق انفاق مبلغ (٢٧٢٠) مليون ليرة سورية خلال الفترة الخاصة بها ، كما استهدفت زيادة قيمة الدخل القومي الى مبلغ (٣٣٦٠) مليون ليرة . كما تضمنت الثانية ، انفـــاق مبلغ (٤٩٥٥) مليون ليرة سورية منها (٦٥١) مليون ليرة لسد الفرات ومبلغ (٧٤٢) مليون ليرة للري والزراعة واستصلاح الأراضي و (١٠١٠) مليون للصناعة والتعدين والطاقة والوقود . و (٨٩٤) مليون للنقل والمواصلات ، و (١٢٧٨) للمرافق العامة والعمل الشعبي والباقي وقدره (٣٨٠) مليون للخدمات وغيرها . وقد وزعت استثمارات هذه الخطة بين القطاع العام وناله منها نحو (٦٩،٧٪) والقطاع الخاص وكان نصيبه منها نحو (٣٠،٣٪) . كما استهدفت الخطة المذكورة زيادة

في الدخل القومي بحيث تصل قيمته الى (٥٢٣٠) مليون ليرة سورية في عامها الأخير (وهو العام الحالي) وبمعدل سنوي قدره (٧،٢٪) .

إن ما يمكن ملاحظته من النتائج خلال السنوات الماضية وفي حدود الاحصاءات المتوفرة عنها يوجز بالآتي :

أولاً – تم انفاق مبلغ (٢٨٨٣) مليون ليرة خلال فترة الخطة الاولى، وارتفعت قيمة الدخل القومي الى (٣٥٨٢) مليون ليرة سورية . وازدادت هذه القيمة في عام ١٩٦٨ بنسبة (٣٠،١٪) عما كانت عليه عام ١٩٦٣ ، كما ازداد الدخل الفردي بنسبة (١٢،٨٪) خلال هذه الفترة إذ وصل الى (٧٠٦) ليرات سورية بعد أن كان عام ١٩٦٣ في حـــدود (٦٢٦) ليرة سورية للفرد الواحد في العام وسطياً . بينما كانت نسبة زيادة السكان خـــلال نفس الفترة في حدود (١٦،٤٧٪) .

ثانياً – وكانت مساهمة القطاع الزراعي في الدخل القومي عام ١٩٦٦ ٢٨٪ وعامي ١٩٦٧ و ١٩٦٨ بنسبة ٢٦٪ بعد أن كانت في حدود ٣٦،٧٪ عام ١٩٦٥ ويعود سبب هذا الانخفاض لسوء بعض المواسم كعام ١٩٦٦ وإلى زيادة مساهمة القطاعات الأخرى . وقد ظهر هذا التدني في الانتاج النباتي أكثر منه في الانتاج الحيواني . حيث انخفض انتاج القمح الى نحو (٦٠٠) الف طن والشعير الى (٥١٢) الف طن عام ١٩٦٨ وكان الأول قد بلغ (١٠٩٤) الف طن والثاني (٥٩٠) الف طن عام ١٩٦٧ .

وانخفض انتاج الحليب الى (٥٤٨) الف طن والسمن الى (١١،٤) الف طن في عام ١٩٦٨ وكان الأول قد بلغ (٦٠٠) الف طن والثاني (١٥،٣) الف طن عام ١٩٦٥ .

ومع ذلك فإن الأراضي الزراعية المستثمرة قد ازدادت من (٦٠١٤) الف هكتار عام ١٩٦٠ الى (٦٣٤١) الف هكتار عام ١٩٦٥ والى (٦٥٤٠) الف هكتار عام ١٩٦٨ . وكانت الزيادة في الأراضي البعلية من (٥٣٨٢) الف هكتار الى (٥٨٢٥) الف هكتار ، وفي الأراضي المروية من (٤٢٤) الف هكتار الى (٥٢٢) الف هكتار . ومن المنتظر أن يحقق انجاز مشروع سد الفرات زيادة في المساحة المروية قدرها (٥٤٨) الف هكتار أي تصبح ضعف ما هي عليه حالياً . واذاما لاحظنا أن عدداً من التطورات قد شهدتها منطقة وادي الفرات بعد الاستقلال ، حيث ازدادت المساحة المزروعه قطناً خلال عشر سنوات بين ١٩٥٢ و ١٩٦٢ من (١٠) آلاف هكتار الى (١٢٠) الف هكتار ، وأن استعمال المضخة والحراثة الآلية قد أديا الى أن يبلغ المتوسط السنوي غير الصافي للهكتار الف ليرة سورية ، كما أن تطبيق الاصلاح الزراعي منذ عام ١٩٦٢ قد أدى لتحول عدد كبير من المزارعين المرابعين في محافظتي الرقة ودير الزور الى مزارعين تابعين للاصلاح الزراعي ، وأن كثافة السكان في الوادي تتراوح بين ١٠٠ و ١٤٠ شخصاً في الكيلو متر المربع بحيث يعتبر مزدحماً بالسكان . وأن مياه السد سوف تغمر نحو (٢٠٠) قرية ابتداء من عام ١٩٧٢ يبلغ عدد سكانها نحو (١٠٠) الف تقسام لهم قرى جديدة غرب وشرق في مساحة قدرها (٢٠) الف هكتار . بالاضافة الى ما سيخلقه اعادة النظر في السياسة الزراعية نتيجة قيام السد واستثمار المساحات الجديدة ، وتبني سياسة زراعية واضحة ومرنة بآن واحد للحصول على الفوائد الاقتصادية والاجتماعية المتوخاة من المشروع بالسرعة الممكنة ، فانه من المقدر نتيجة هذه التطورات زيادة عدد السكان في منطقة الفرات بصورة خاصة وفي القطر بصورة عامة وكذلك

ارتفاع الدخل القومي سنوياً بنحو (٥٠) مليون ليرة سورية عقب انجاز السد و ٢٤٠ مليون ليرة عام ١٩٨٠ و (٧٠٠) مليون عام ٢٠٠٠ .

ولقد أدى تطبيق قانون الاصلاح الزراعي الى ارتفاع عدد القرى التي شملها التوزيع من (٢٢٩) قرية عام ١٩٦٢ تبلغ مساحتها (١٢٩١١٩) هكتاراً ويستفيد منها نحو (٩١٤٣) عائلة مجموع أفرادها (٤٩٢٤٠) نسمة الى (١٤١٨) قرية عام ١٩٦٨ مساحتها (٥٦٨١٩١) هكتاراً ويستفيد منها نحو (٣٩٦٥٠) عائلة مجموع عدد أفرادها (٢٢٩٧٣٦) نسمة معظمها في محافظات حلب والرقة وادلب ودير الزور والحسكة وحماه .

ثالثاً ـ وبلغت مساهمة القطاع الصناعي في الدخل القومي في عام١٩٦٨ نحو (١٢٫٨٪) وكانت في عام ١٩٦٥ في حدود (١١٫٦٪) وفي عام ١٩٦٦ في حدود (١٣٪) وفي عام ١٩٦٧ (١١٫٩٪) وارتفع الناتج الاجمالي للصناعة من (١٣٩٥) مليون ليرة سورية عام ١٩٦٣ الى (١٦٦٦) مليون ليرة عام ١٩٦٦ والناتج الصافي من (٤٧٧) مليون ليرة الى (٥٩١) مليون ليرة خلال هذه الفترة وكانت هذه الزيادة في الصناعات التحويلية بالدرجة الأولى ثم في المياه والكهرباء وتليها الصناعات الاستخراجية . وارتفع الرقم القياسي للانتاج بالنسبة لما كان عليه عام ١٩٥٦ فأصبح في أعوام ٦٥ حتى ١٩٦٨ على التوالي : ٢١٥ ، ٢٢٣ ، ٢٣٦ ، ٢٩٤ . ومن شأن هذه الزيادة في هذا القطاع بالاضافة الى توفير المزيد من حاجة الاستهلاك المحلي والتصدير من المنتجات ، تحقيق زيادة في فرص العمل للعديد من المواطنين ، تبعاً للزيادة المتحققة في عدد السكان .

رابعاً ـ وكانت تقديرات الخطة الثانية زيادة (٢٣٠) ألف عامل جديد خلال سنوات الخطة وقد أمكن خلال السنتين الاولى والثانية منها تحقيق زيادة

قدرها (٢٥٦) ألف عامل ، وكانت الزيادة بمعدل (٤٪) في عام ١٩٦٦ عن سابقه و (١٤٪) عام ١٩٦٧ ، وبلغ مجموع القوة العاملة في العام المذكور نحو (١٦٥٢) ألف عامل ، وكان عام ١٩٦٥ (١٣٩٦) ألف عامل . ويلاحظ أن قوة العمل زادت بنسبة (١٣٪) من مجموع السكان بين أعوام ١٩٦٣ و ١٩٦٦ وبنسبة (٢٠٪) من القوة العاملة . كما أن العطالة انخفضت بنسبة (٤٦٪) من مجموع السكان و (٥٤٪) من مجموع القوة العاملة .

خامساً - قطاع التجارة الخارجية : وكانت تقديرات الخطة للمستوردات أن تبلغ عام ١٩٦٨ (١٠٦٢) فكانت في حدود (١١٩٣) مليون وأن تبلغ عام ١٩٦٩ (١١١٣) مليون ليرة فبلغت (١٤١١) مليون ليرة سورية . كما كانت تقديرات الخطة للصادرات في العامين المذكورين على التوالي (٩٣٤) و (٩٨٩) فكانت الصادرات الفعلية في حدود (٦٧٣) و (٧٩٠) مليون ليرة سورية ، أي أن الخطة كانت تتوقع أن يكون عجز الميزان التجاري في حدود (١٢٨) و (١٢٤) مليون فكان في حدود (٥٢٠) و (٦٢١) مليون ليرة خلال نفس الفترة . وكانت الزيادة في المستوردات في المواد نصف المصنوعة والمصنوعة كلياً ، أما الانخفاض في الصادرات فكان في منتجات الحبوب والقطن والمنتجات المصنوعة ونصف المصنوعة .

سادساً - كما أدت عملية التوسع في التعليم الى زيادة عدد الطلاب في التعليم الابتدائي من (١٥٠١٣٤) تلميذاً عام ١٩٤٦ الى (٣٤٥) ألف عام ١٩٥٦ والى نحو (٧٠٦) آلاف عام ١٩٦٦ والى نحو (٧٦٨) ألف عام ١٩٦٨ والى زيادة عدد الطلاب في التعليم الاعدادي والثانوي من (١٢٦٦١) تلميذاً عام ٤٦ الى (٦٣) ألف عام ٥٦ الى (١٦٦) ألف عام ٦٦ و الى نحو (٢١٥) ألف عام ١٩٦٨ .

أما عدد طلاب الجامعات فقد ازداد من (١٠٥٨) طالباً عام ٤٦ الى نحو (٥) آلاف طالب عام ٥٦ثم الى نحو (٣٣٠٠٠) طالب في كل من عامي ٩٦٧و٩٦٨. وكذلك فقد ارتفع عدد طلاب التعليم المهني ودور المعلمين من (٣٨٨) طالباً عام (٤٦) إلى (١٢٣٣) طالباً عام ٥٦ ثم الى نحو (٧٠٠٠) طالب عام ٩٦٦ و (٧٤٦٤) طالباً عام ١٩٦٧ .

سابعاً — وكانت أطوال الطرق البرية في هذا القطر في عام ١٩٦٣ في حدود (٧٨٨٦) كيلو متراً فاصبح عام ٦٦ في حدود (٩٣٨٦) كيلو متراً وعام ٣٩٦٧ في حدود (٩٦٢١) كيلو متراً ، وارتفعت حمولة البضائع المنقولة بالسكك الحديدية من (٢٢٥) مليون طن كيلو متري عام ١٩٦٤ الى ٢٦٧ مليون عام ١٩٦٧ ثم الى (٣٢٣) مليون عام ١٩٦٨ .

واذا كان استعمال الهاتف بات دلالة من الدلالات على مدى التطور الذي بلغه بلد من البلدان فإن عدد الخطوط الرئيسية للهاتف في هذا القطر قد ازدادمن نحو (٤٨) ألف خط عام ١٩٦٣ الى نحو (٧٠) ألف خط عام١٩٦٨ .أماعدد المهندسين فقد أصبح عام ٩٦٨ (٢٠٨٠) مهندساً وكان في حدود (١٦٦٩) مهندساً عام ١٩٦٦ .

ثامناً — وفيما يتعلق بتطور الخدمات الصحية فان عـــدد الأسرة في المستشفيات قد ارتفع من (٥٠٦٢) سريراً عام ٥٦ الى (٦٢٠٦) سريراً عام ١٩٦٧ وازداد خلال هذه الفترة عدد اطباء الصحة من ١٠٧٩ طبيباً الى ١٤٠٣ أطباء والصيادلة من ٣٩٢ الى ٤٢٢ والممرضين والممرضات من (٣٩٣) الى (٤٨٣) واطباء الاسنان من (٢٣٥) الى (٣٤٥) طبيباً .

النمو غير المتوازن وعلاقته بالتطور السكاني :

تلك هي لمحة خاطفة عن بعض آثار التنمية الاقتصادية والاجتماعية على التطور السكاني في هذا القطر من خلال الأرقام الإحصائية المتوفرة حول أبرز الفروع التي تناولتها عملية التنمية خلال مرحلة من مراحلها . ويمكن أن يلحظ المتتبع لهذه التطورات أن النمو في هذه الفروع ليس على مستوى واحد ، وبكلمة أصح ليست هناك موازنة في التنمية الجارية بين كل من الفروع المذكورة خلافاً لما نص عليه المنهاج المرحلي . وفي اعتقادنا أن ذلك يعود الى نقص في مضمون الخطط ، فلقد جاءت الخطتان الأولى والثانية ، كما سبق القول ، أقرب الى البرامج الاستثمارية منهما الى الخطط الشاملة الكاملة التي تنظر الى البنيان الاقتصادي والاجتماعي للقطر وهيكله على أنها وحدة مترابطة وحلقات متصل بعضها ببعض ، ولا يمكن ان تحدد سرعة النمو أو السير لاحداها بأقل أو أكثر مما تتطلبه الأخرى . والأمل كبير بأن تتلافى الخطة الخمسية الثالثة التي يجري العمل حالياً على اعدادها هذه الثغرات .

ذلك أن التطور السكاني الملحوظ في القطر ، يتطلب ان تتحقق التنمية بشكل مريع ومتوازن للحيلولة دون أن تبقى نسبة التخلف التي يعاني منها القطر أعلى من نسبة النمو او معادلة لها ، ولتجاوز الاختناقات التي قد يسببها الاندفاع في جانب والبطء في جانب آخر من فروع الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فاقامة مصنع دون توفير الفنيين اللازمين له او المواد الأولية او التسويق اللازم لإنتاجه ليس زيادة في التنمية الصناعية وانما عرقلة لها ولفروع أنتاجية اخرى .

ان الملاحظ في نمو سكان هذا القطر هو أنه قد تضاعف خلال فترة (٢٤) عاماً تقريباً فبعد أن كان في حدود (٢٫٧) مليون نسمة عام ١٩٤١ أصبح في

عام ١٩٦٥ في حدود (٥٫٤) مليون ، فاذا سارت هذه الزيادة بنفس النمو فان عدد سكان القطر سوف يصبح بعد أقل من (٢٠) عاماً في حدود ضعف هذا العدد ، تبعاً لازدياد المواليد الذي كان عام ١٩٥٩ في حدود (١١٤) ألف نسمة فأصبح عام ١٩٦٨ نحو (١٩٠٫٥) ألف بينما كانت زيادة عدد الوفيات خلال هذه الفترة دون هذا المعدل حيث كان العدد عام ٥٩ في حدود (٢٥) ألف نسمة عام ١٩٦٨ ومن ناحية اخرى فانه يلاحظ ان القوة البشرية في هذا القطر هي فتية إذ تبلغ نسبة الذين أعمارهم دون (٦٠) سنة في حدود (٩٢٫٨٣٪) والذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٥٩ سنة في حدود ٤٦٫٤٢٪ ، من مجموع السكان . وأن قوة العمل ما بين سن ٢٠ و ٦٠ قد زادت من ٥١٨٪ الى ٩٫٣٪ بين عامي ٩٦١ و ٩٦٥ أما تلك التي هي اقل من ٢٠ سنة فقد انخفضت قوة العمل لديها الى ٨٫٥٪ نظراً لاتجاه معظمها الى الدراسة نتيجة الوعي وتحسن مستوى المعيشة .

يضاف الى ذلك دخول الاناث الى معترك العمل ، نتيجة زيادة نسبة التعليم بينهن ، وزوال بعض التقاليد ، والرغبة في تحسين مستوى معيشتهن وأسرهن والنزوح الملحوظ من الريف الى المدينة وغير ذلك من الأسباب الاخرى.

ومع ذلك ، وعلى الرغم من أن الاتجاهات العامة للتطور القادم للسكان في هذا القطر غير واضحة بشكل جيد حتى الآن ، نتيجة عدم تكامل الاحصائيات ووضوحها ، ولأن التطور القادم في الولادات والوفيات مرتبط بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية واعتبارات أخرى . يضاف الى ذلك ، أنه في حال اذا ما أخذ المعدل الوسطي المتعارف عليه من أن العائلة المؤلفة من سبعة اشخاص في الريف يمكنها استثمار ثلاثة هكتارات مروية واثني عشر هكتار بعلي ، وأنه في نهاية انجاز بناء سد الفرات سوف تتوفر مساحة زراعية في هذا القطر تكون مع المساحة الحالية

كافية لنحو ستة ملايين شخص . في حين أنه في الوقت الحاضر لايعمل في الزراعة سوى أقل من نصف هذا العدد . وأنه من الموقع استصلاح مساحات أخرى من الأراضي الصالحة للزراعة .

أهمية التفاعل بين القوة البشرية والتنمية :

في ضوء هذا كله وغيره من الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية والتحولات البيئية الأخرى ، فإنه يمكن القول بأن الموارد والامكانات التي تتوفر في هذا القطر في الوقت الحاضر وفي المستقبل حتى عام / ٢٠٠٠ / لاتوحي بأي خوف بأن يتحول التطور السكاني في القطر العربي السوري لانفجار سكاني ، فيما اذا استمرت عملية التنمية بصورة أسرع وتوازن أفضل بين مختلف فروع وقطاعات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في القطر المذكور .

إلا أنه لابد من التنويه بحقيقة لايمكن تجاهلها وهي أن تحقيق التفاعل بين القوة البشرية في هذا القطر وبين التنمية التي يجهد في تحقيقها عن طريق تعبئة كافة موارده وطاقاته المتاحة ، بما في ذلك القوة البشرية ، يجب أن يساير التطورات التي حققتها الانسانية سواء في مجال التقدم العلمي أو التقني أو الفكري أو الحضاري ، والتي كان لها تأثيرها على فروع الحياة الاقتصادية والاجتماعية وغيرها في البلدان المتطورة والبلدان النامية على حد سواء .

ويقول خبراء الأمم المتحدة ، بأن أية خطة للتنمية في الدول النامية يجب أن تبدأ بخطوة حتمية هي التدريب المهني . وأن كل مشروع اقتصادي لاتتوفر له العناصر المنفذة له ، والمؤهلة فنياً هي ضرب من العبث . لأن استخدام الخبراء الاجانب لايمكن أن يستمر الى الأبد ، وإن استمر فإنه يرهق الانتاج

بتكاليفه ، ويجعله عرضة لتقلبات وتأثيرات خارجية غير مستقرة في غالب الأحيان . واذا كان هذا القطر قد حقق بعض النجاح في تنمية فروع الانتاج لديه ، فإن مما يلاحظ بنفس الوقت ، أن التأهيل والتدريب المهني لم يأخذ أبعاده الكافية لديه حتى الآن . بالاضافة لمايسببه نزوح الخبرات والاختصاصات التي توفرت لدى الفنيين في هذا القطر الى الخارج من خسارة كبيرة للاقتصاد القومي ، ليس فقط من حيث التكاليف الباهظة التي يتحملها القطر ، والتي قدرت بالنسبة لأمثاله من البلدان النامية بنحو (٢٠) عشرين الف دولار لكل واحد منهم ، وانما من حيث حاجة التنمية وفروع الانتاج القائمة أو الجديدة لخبراتهم واختصاصاتهم ، الأمر الذي يتطلب الأخذ بمبادهة مريعة للحد من نزوح تلك العناصر الى جانب اعداد المزيد من العناصر والخبرات الأخرى اللازمة لعدد من فروع الانتاج وفي مقدمتها الصناعات البترولية والكيميائية والهندسية ، الى جانب مايحتاجه القطاع الزراعي أيضاً من هذه العناصر .

وهكذا يتضح أنه مالم تراع عملية التنسيق والتوازن بين التطورا السكاني والتنمية الاقتصادية والاجتماعية في هذا القطر ، فإن خللاً لابد أن يقع في مسيرته على طريق التطور والتنمية . وقد يستفحل مع الزمن ، ويجعل من الجهود التي تبذل بشكل مستمر لتجاوز مرحلة التخلف ، أعباء قد لاتكفيها جهود مماثلة للخلاص من وطأتها .

معارك قلمية في الحركة الاشتراكية

حنا عبود

ظهرت في قلب الحركة الاشتراكية تيارات شتى منها ما كان أقرب الى الطيش والنزق ومنها ما كان أقرب الى الوعظ والارشاد ، منها المرتجل السريع ومنها المتأني البطيء . وفي غمار المعارك العلمية التي خاضتها هذه التيارات بدأ الطريق يتبدى رويداً رويداً وبدأت الطبقة العاملة تعرف سلاحها النظري .

ولهذه المعارك أهمية كبرى لأنها تدل على تجارب حية وليست مجرد لغو سجله التاريخ للمثقفين . ونعتقد أن في تقصي أبعاد هذه المعارك فائدة كبرى لقضايا الاشتراكية في عصرنا، اذ كثيراً ماتظهر الرؤيا القديمة في ثوب جديد على الرغم من تصرّم قرن من الزمن بين العصرين . وسوف ندرس موقف أشهر الأعلام مبتعدين عن الأمور الهامشية أو التيارات التي لم يكن لها تأثير بعيد في مجرى الفكر الاشتراكي لاعتقادنا أن هذا القليل الذي سنتناوله يغني عن الكثير الذي سنهمله .

لاسال واللاساليون

ولد فرديناند لاسال « ١٨٢٥ – ١٨٦٤ » في مدينة برسلاف من أبوين يهوديين ، فتعرض للاضطهاد بسبب يهوديته . وكانت حياته القصيرة ، على الرغم من سوء صحته ، زاخرة بشتى ضروب النشاط والعمل الدؤوب بشكل مذهل ، مما جعل له شعبية واسعة لدى الطبقة العاملة الالمانية . ومما زاد في شهرته «دفاعه المستميت عن هانز فلدت ، المرأة المظلومة ، ضد زوجها مايقرب من عشرة اعوام خرج بعدها منتصراً مما جعله رمزاً للمدافع الذي لايكل عن « العدالة » في نظر بعضهم ، حتى أن هانزفلدت نفسها غدت من اكبر دعاته ومؤيديه وأشدهم حماسة .

للاسال بعض الكتب ، ليست بذات ذخيرة فكرية عظيمة ، أهمها « هيراكليت » و « الحقوق المكتسبة » . وكتبه على النقيض من نشراته ، لاتمت الى الاشتراكية والفلسفة المادية بوشائج قوية ، بل كان لهيجل تأثير واضح وجلي في بعض كتبه أو في أغلبها ، لما يحتوي فيها من نزعة مثالية . أما في دعوته السياسية فتأثر بماركس الى حد بعيد . وكان يعتبره « استاذه الروحي ومعلمه الفذ » تبادل معه الرسائل ، واستقى منه الاصول النظرية . ولكنه غيّر فيها وبدل ، فانفجر الصراع بين الخطين ولكنه لم يصبح حاداً إلا بعد مؤتمر غوتا ، وبعد أن وضع الموت حداً لحياة لاسال الصاخبة في مبارزة بسبب حادث غرامي سخيف .

لم يكن لاسال ذا غفلة ، بيد أن مرعته في العمل واعتباطه ، واعتقاده أنه الزعيم المقبل للأمة الألمانية . . كل ذلك دفعه إلى مفارقات غريبة . ومع هذا بقي تأثيره في الطبقة العاملة فعالاً بعد وفاته ، فقد ظل أنصاره فترة من

الزمن متماسكين، إلى أن اندمجوا في « الحزب الديمقراطي الاشتراكي » بعد اجتماع غوتا ، حيث ظهر برنامج مشترك ، فيه الكثير من المغالطات رد عليه ماركس في كتابه « نقد برنامج غوتا » .

إن الفترة التي عاش فيها لاسال كانت فترة انتعاش الفكرة القومية .

وكان بسمارك ، رجلها الأول ، من اكبر العاملين في حقل توحيد ألمانيا .. فهذا المستشار الحديدي ، الذي قام بكثير من الاصلاحات ، طرح المشكلة القومية وكأنها الحل الشافي والدواء الناجع لكل العلل . وهذا ماشوش ذهن لاسال ، وجعله يضطرب ويتأرجح بين الحطين الطبقي والقومي ، فابتعد فكره عن الصفاء والوضوح ، ولم يدرك أن القضية القومية لايمكن بحثها بعيداً عن الصراع الطبقي ، ودافع عن أعمال بسمارك ، وجعل يتودد إليه عسى أن يحقق شيئاً على يديه .

هذا الاضطراب الذهني ، يضاف إليه مشاكله الخاصة المشوشة ، أبعده عن تلمس طريق السداد فوقع في كثير من الأخطاء ، والانحرافات ، ابتعدت به عن الطريقة العلمية في استقصاء القوانين الاجتماعية والوصول إلى مخرج ملائم ومنسجم مع ظروف الطبقة العاملة . فماهي الاخطاء التي ارتكبها وماهي الآراء التي تبناها ؟ :

١ — مناصرة الدولة البروسية ضد البرجوازية :

الطبقة العاملة ضد كل نظام مهما كان هذا النظام، مادام يستعبدها ويستثمرها . أما الهدنة التي تقوم بين البروليتاريا والحكام فوقتية محدودة ، مرتبطة بالظروف المعينة التي تمر بها البلاد كخطر داهم مثلا . وفيما سوى ذلك ، تعمل البروليتاريا

على تقويض كل نظام مهما ادعى من « تقدمية » ، وتحقق ديكتاتوريتها « نظام حكمها » هادفة محو المجتمع الطبقي التناحري واقامة المجتمع الجديد .

ولا يعني هذا أن الحزب الثوري يقف منفرداً في كل مراحل النضال ، فهو يؤيد الثورة البرجوازية التي هي « بداية وتمهيد مباشر لثورة بروليتارية [١] » ، ويقف الى جانب « كل حركة ثورية ضد النظام الاجتماعي والسياسي القائم [٢] » . ولكن في الوقت الذي يؤيد فيه العمال هذه الثورة البرجوازية أو تلك ، عليهم ألا يتورطوا في السياسة البرجوازية ، وان يحافظوا على الانفصال الكامل لتنظيمهم المستقل ، وكفاحهم الطبقي ، أي التعاون مع البرجوازية والنضال ضدها في الوقت نفسه بغية الاستمرار في الثورة حتى النهاية .

أما لاسال فقد وقف الى جانب النظام القائم « الدولة البروسية » ضد البرجوازية التي كانت ثورية في ذلك الوقت ، آملاً من وراء ذلك ان « تحقق الدولة شيئاً من آرائه . وبذلك يكون لاسال اول ذيلي في الحركات العمالية . وعلى الرغم من نجاحه في تشكيل حزب عمالي « الاتحاد العام للعمال الألمان » مستقل عن البرجوازية ، فقد جنح الى التعاون مع السلطة . وككل تعاون مع السلطة التي استفادت منه ولم تفده .

إن الخطأ الأساسي في نظرة لاسال وتصرفه ، هو انه لم يستطع أن يتبين بوضوح ارتباط القضية القومية بالقضية الطبقية . إن تعليق الآمال على الدولة خطأ فاضح وتحريف واضح . وكل محاولة في اعتبار الدولة « محايدة » في حمأة الصراع الطبقي — كما فعل لاسال — هي محاولة مضللة تجر أسوأ العواقب .

---

(١) البيان .

(٢) راجع رسائل ماركس وانجلز « ونقد برنامج غوتا » لماركس و « الدولة والثورة » للينين .

٢ — الاقتراع والنضال البرلماني :

البرلمان أداة من أدوات السيطرة الطبقية ، وهو نتاج تطور تاريخي طويل ، وليس الصراع الذي يدور في قلب البرلمان إلا صراعاً حول أساليب الخداع والبطش والاستثمار ففي كل عدة سنوات ، كما يقول لينين ، يقرر هؤلاء السادة « أي عضو من الطبقة السائدة سيقوم بقمع الشعب في البرلمان وسحقه ، هذا هو الجوهر الحقيقي للبرلمانية البرجوازية ، في الأنظمة الملكية البرلمانية الدستورية فقط ، بل كذلك في الجمهوريات الأوسع ديمقراطية » (١) .

بيد أن هذا لا يعني التخلي عن النضال البرلماني ، بل يعني النضال عن طريق البرلمان لا بغية السيطرة عليه ، فهذا أمر مستحيل ، بل للعمل في سبيل الثورة والتحضير لها ، وتهيئة الجماهير وفضح أساليب البرجوازية . والبرلمان محك المناضلين ، فبينما يقود بعضهم الى السجن ، يصل بعضهم الى المناصب والمقاعد الوثيرة . فالبرلمان وسيلة وليس غاية . والحزب الثوري ملزم بخوض النضال البرلماني لتربية المراتب المتأخرة في الطبقة العاملة .

أما لاسال فكان يؤمن بحق الاقتراع كطريق من طرق تحويل الدولة الى أداة ديمقراطية في خدمة الشعب ، حيث يسيطر العمال على الائتمانات وأموال الدولة فيستخدمونها بقرارات برلمانية في صالح العمال ، وعندئذ تزول سيطرة الرأسماليين المستثمرين . إن ما حدا بلاسال الى تعليق الآمال على الاقتراع والبرلمان ، هو اعتقاده أن الدولة محايدة تخدم كل الشعب . فاذا ما أحرز العمال أكثرية برلمانية قدمت لهم الدولة كل امكاناتها كما كانت تقدم لأسلافهم ، وبهذا

(١) راجع « الغاء البرلمانية » في « الدولة والثورة » ، و « هل يجوز الاشتراك في البرلمانات البرجوازية » في « اليسار مرض الشيوعية الطفولي » .

يكون البرلمان مرقاة للطبقة العاملة نحو مستقبلها الذي رسمه لها . ولا شك أن أحداً لن يحسد الطبقة العاملة على هذا المستقبل .

٣ ـ « الحقوق المكتسبة » والميراث :

إن كتاب « الحقوق المكتسبة » يظهر لنا بوضوح ابتعاد ذهنية لاسال عن التحليل العلمي والنظرة الموضوعية . ولعل الميراث من أهم الحقوق المكتسبة في الأنظمة الرأسمالية ، فكما يهب الأب اسمه لابنه ، كذلك يهبه « التركة » التي تكون حقاً مكتسباً للابن لا يناقش في ذلك مناقش ولا يعترض معترض .

ولاسال يرفض أن يتقيد المجتمع بتنفيذ الحقوق المكتسبة ، إذا رأى فيها ما يضر الصالح العام أو يعيق تطوره . ومن الحقوق المكتسبة التي تسري عليها هذه القاعدة حق الميراث ، إذ لم يتجرأ لاسال ويعلن رفضه القاطع للميراث، وانما اكتفى بالقاء التبعة على المجتمع . فإن كان في الميراث ضرر فليمنع . ولو تفحص لاسال التاريخ لرأى أن الميراث ظهر بظهور الملكية الخاصـــة وسيزول بزوالها .

وما يعنينا هنا ليس هذا التشويش والاضطراب ، وانما نظرته المثالية والاعتباطية التي فسر بها نشأة الميراث . فهو يرجع بـه الى المعتقدات القومية الخاصة بكل شعب . فالميراث في القانون الروماني يقوم على فكرة استمرار ارادة الفرد بعد موتـــه ، لاعتقادهم أن الموت هو انتقال من حالة الى حالة . ويفسر وجود الميراث في القانون الالماني باعتقاد الشعب أن العائلة هي الخلية الاجتماعية وفناء فرد لا يعني ذهاب ملكيته الى غير عائلته .

إن مثل هذا التفسير وذاك الاقتراح يدلان على نظرة مثالية الى التاريخ

والمجتمع فكأن التاريخ من صنع الافكار ، وكأن المعتقدات أبدية لا منشأ لها ولا نهاية . إن هـــذا المفهوم المثالي قد جر لاسال الى أمور كثيرة كان في غنى عنها .

٤ ــ لاسال والنقابات :

للنقابات دور خطير وفعّال في المجتمع الرأسمالي ، فهي مراكز لتجمع البروليتاريا المنظمة ، حيث يزداد وعيها وفهمها للأمور والأحداث الاجتماعية والسياسية والعمالية . وهي مدرسة ثورية للعمال ، يتلقون ــ عن طريق النضال النقابي ــ شتى الدروس التي تؤهلهم لتجنب كثير من الأخطاء أثناء الممارسة .
وبالاضافة الى ذلك تقدم النقابات كثيراً من المعونات للعمال وتدافع عن حقوقهم مما يزيد شعورهم بقوتهم وشخصيتهم ويؤهلهم لشتى النضالات التي قد تشمل اضرابات واسعة وتحقق مكتسبات على درجة كبيرة من الأهمية (زيادة أجور ــ ضمان صحي واجتماعي ــ منع التسريح . . .) . إن مهمة النقابات في المجتمع الرأسمالي الوقوف ضد تبعية العمال لأرباب العمل ، سواء أكانت التبعية مادية أم فكرية . بيد أن النقابات ليست « طريق الخـــلاص » للطبقة العاملة مهما حققت من منجزات . إنها وسيلة من وسائل نضال الطبقة العاملة . وكل افراط أو تفريط في تقدير دور النقابات يبعدها عن مهمتها ويقلل من امكاناتها .

ولاسال يرفض كل الرفض فكرة النقابات بينما يرى فيها ماركس وانجلز دلالة بالغة الأهمية على وعي الطبقة العامـــلة واتحادها . ويعتقد لاسال أن من المستحيل أن يكون في مقدور النقابات تحسين أحوال العمال وظروفهم المعيشية في النظام الرأسمالي القائم ، وكان يائساً من أن النقابات ستحقق أية « نتائج

ايجابية ، مهما كان نوعها في اطار النظام الرأسمالي . وقد دل ماركس وانجلز أن هذا الموقف إن هو إلا حرمان الطبقة العاملة من وسيلة هامة من وسائل نضالها ضد النظام القائم . وظل لاسال على رأيه هذا رغم أنه حاول جاهداً أن يتصل بالنقابات ويعمل معها ويجعلها تابعة « لاتحاد العمال الألمان العام » الذي أسسه كحزب للطبقة العاملة .

٥ — لاسال والتعاونيات :[١]

ان نظرية لاسال في التعاونيات تشبه الى حد بعيد نظرية الاشتراكيين الخياليين ، وبشكل خاص نظرية لويس بلان التي تقول ان على العمال انشاء جمعيات تعاونية تجبر الدولة على مساعدتها في التخلص من أرباب العمل واصحاب الأموال[٢] . ويجب على التعاونيات العمالية – في نظر لاسال – أن تقوم بممارسة الضغط على الدولة لامدادها بالائتمانات ورؤوس الأموال . وقد غاب عن لاسال أن هذه التعاونيات سوف تعمل ، ولا شك ، ضمن شروط الانتاج الرأسمالي وهي الشروط السائدة في الانتاج ككل ، مهماانفردت بعض القطاعات في « نموذج » انتاجي مخالف . وهذا ما يجعلهاتتأثر بالقوانين الأساسية الرأسمالية ، أي أنها ستقوم على الربح ،وهذا ما يجعلها أيضاً من الوحدات الانتاجية الرأسمالية

---

(١) كتب انجلز ملاحظة في مقدمة الطبعة الانجليزية للبيان عام ١٨٨٨ جاء فيها « كان لاسال بنفسه يقول لنا انه من تلامذة ماركس وانه بهذا يقف في نطاق البيان . ولكنه لم يتجاوز في نشاطه التحريضي في أعوام ١٨٦٢ – ١٨٦٤ المطالبة بانشاءجمعيات انتاج تعاونية تدعمها الدولة بمدها بالاعتمادات » .

(٢) راجع كتاب بليني نول « الاشتراكية الخيالية في القرن التاسع عشر » للوقوف على شرح مفصل لهذه النظرية الاصلاحيةالتي نادى بهاأغلب الاشتراكيين الخياليين.

لها أسواقها ولها أرباحها . هذا من جهة، ومن جهة ثانية سوف تظهر ضمن هذه التعاونيات، نظراً لتأثرها بالسوق الرأسمالية العامة، « فئة متميزة » لا تلبث أن تحول التعاونية الى « مجال » استثمار. وقد تآجر لاسال بفكرة التعاونيات وحاول اقناع بسمارك كما سنرى .

٦ — الدولة بين لاسال وماركس :

ما دام المجتمع منقسماً الى طبقات فإن السلطة ستؤول، بشكل طبيعي وواضح، الى الطبقة الأقوى، وليس الى الطبقة الأكثر عدداً حسب اعتقاد البرلمانيين والمحرفين . والطبقة الأقوى في هذا المجتمع هي الطبقة التي تملك أدوات الانتاج وتسيطر على قوى العمل، وهي الطبقة التي تؤول اليها السلطة المتمثلة مادياً بجهاز الدولة . فلا يمكن فصل مفهوم الدولة عن المفهوم الطبقي . فهي نتاج المجتمع الطبقي ظهرت بظهور الطبقات وستتلاشى بتلاشيها، والمجتمعات البشرية الأولى لم تعرف شكلاً تنظيمياً سياسياً اسمه الدولة والمجتمعات المقبلة ستكون منظمة بشكل يغنيها عن الدولة [١] .

والغريب في الأمر أن لاسال رأى بأم عينيه المجتمع الطبقي وقام بدور ايجابي في تنظيم الطبقة العاملة بتأسيس « الاتحاد العام للعمال الألمان »، وبذا حوّل العمال من موقف التبعية للبورجوازية الى حزب ذي كيان مستقل، ومع هذا فإن نظريته في الدولة تختلف كل الاختلاف عن نظرية البروليتاريا . فهو يعتقد ان الدولة ليست سوى تعبير ايديولوجي عن « روح الشعب » دون ان يميز ما في

(١) راجع « أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة » لانجلز و « الدولة والثورة » للينين .

هذا « الشعب » الذي يبدو موحداً من عناصر الصراع المرير . فالشعب كل واحد في نظره والدولة تمثل هذا « الكل » ، فهي اذن فوق الطبقات تعمل على خدمتها وتمدها بما تحتاج من معونة فلا عجب اذا طلب اليها لاسال أن تمد الجمعيات التعاونية التي اقترحها بالمال والاعتمادات للتخلص من سيطرة الطبقة الرأسمالية .

واذا بحثنا عن السبب في نظرته التحريفية هذه وجدنا لها جذوراً ايديولوجية تمتد الى هيغل وفكرته المثالية عن الدولة ، والدولة البروسية بشكل خاص . ولاسال ، على الرغم من ادعائه أنه تلميذ ماركس فهو هيغلي مثالي النزعة . يتضح ذلك من كتبه التي ألفها ونشراته التي وزعها . فهو يعتبر التاريخ صراع الفكر للفكر وليس صراعاً طبقياً . وهذه هي فكرة هيجل بالذات . وعندما يفسر الحقوق المكتسبة يعود بها الى عقائد الشعوب وليس الى اسلوب الانتاج والشكل السائد للملكية .

وما دام هذا رأيه في الدولة ، فلا عجب إذا رأيناه يتودد الى بسمارك مقدماً له الوعود بأن الطبقة العاملة ستقف الى جانب فكرته القومية مقابل اعداد التعاونيات من قبل الدولة بالاموال . وقد نفذ بسمارك بعد وفاة لاسال شيئاً من مقترحاته ، ولكن الى حد معين ، قاصداً من وراء هذه الاصلاحات تهدئة الطبقة العاملة وشقها في سبيل تنفيذ سياسته المعروفة .

* * *

وبعد وفاة لاسال حدثت انشقاقات في صفوف اتباعه ، ووقع اضطهاد شديد على القوى التقدمية والاحزاب السياسية . فعمد حزبه الى التفاوض مع فريق آيزناخ بزعامة ليبكنخت وببيل ، واجتمع الفريقان في مدينة غوتا عام ١٨٧٥ واتحدا فعلا بعد « مؤتمر غوتا للوحدة » وقررا الاندماج تحت اسم الحزب

الاشتراكي الديمقراطي الالماني . وتضمن البرنامج المشترك الذي عرف باسم برنامج غوتا كثيراً من النظريات التحريفية جعلت ماركس يرد عليها في نشرة تحت اسم « نقد برنامج غوتا » حيث تناول بالتفصيل مواد هـذا البرنامج وعلق عليها فاضحاً مضمونها التحريفي . وأهم النقاط التي رد عليها ماركس هي .

آ – يقول البرنامج : « ان العمل مصدر كل الثروة و كل الحضارة » فرد ماركس : ان الطبيعة مصدر للقيم الاستعمالية بصورة لا تقل عن العمل .

ب – جاء في البرنامج : « وان ادوات العمل هي احتكار للطبقة الرأسمالية في المجتمع الراهن » . فبين ماركس الجوهر التحريفي لهذه الصيغة المأخوذة من أنظمة الأممية بشكل مغلوط وأشار الى تجاهل البرنامج لاحتكار الملاكين العقاريين لادوات العمل أيضاً وفسر سبب هذا التجاهل .

ج – طالب البرنامج بالتوزيع العادل . وتهكم ماركس قائلاً إن البرجوازيين انفسهم يؤكدون أن توزيعهم الحالي عادل أيضاً .

د – ورد في البرنامج : « ان تحرير العمل يجب أن يكون من عمل الطبقة العاملة التي لاتعدو سائر الطبقات الأخرى أن تكون بالنسبة إليها كتلة رجعية واحدة ليس غير » . وقد رأى ماركس أن هذا تحريف لمبدأ الأممية الأولى . فكلمة « تحرير العمل » لاتؤدي إلى مفهوم واضح . أما البرجوازية فليست رجعية إلا بالقياس للبروليتاريا . ولا يمكن القول إنها تشكل مع الطبقات الأخرى كتلة رجعية واحدة .

هـ – انتقد ماركس اصطلاح « الدولة القومية » واعتبره تصوراً لاساليا من وجهة نظر قومية ضيقة .

و - انتقد قانون الأجور الحديدي واعتماده على نظرية مالتوس الرجعية .

ز - كال الضربات لما اسماه البرنامج « الدولة الحرة » فيقول ، إن بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الشيوعي تقوم مرحلة النمو من احدهما الى الآخر . ويوافق ذلك مرحلة انتقالية سياسية لايمكن للدولة خلالها أن تكون شيئاً آخر سوى الدكتاتورية الثورية للبروليتاريا .

وفي هذا الكتاب نجد وضوحاً تاماً لشكل الدولة وهي دولة الدكتاتورية الثورية للبروليتاريا . هذه النظرية التي طورها لينين فيما بعد .

وبعد هذا النقد المرير الذي قدمه ماركس ، عقد الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني الموحد مؤتمراً في ايرفورت عام ١٨٩١ ، واصدر برنامجه الذي عمل بكثير من ارشادات ماركس وانجلز . ولكنه تضمن بعض التنازلات الخطيرة للانتهازية فاستغلت ذلك أحزاب الأممية الثانية . وقد انتقد انجلز مشروع برنامج ايرفورت في مقالة « مساهمة في نقد مشروع البرنامج الاشتراكي الديمقراطي عام ١٨٩١ » ولكن قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي لم تأخذ بملاحظات انجلز من جهة ، ومن جهة أخرى أخفت المقال المرسل إليها عن أعضاء حزبها ، كما حدث تماماً في مؤتمر غوتا حيث اخفيت الانتقادات الواردة من ماركس وانجلز . واهم مايؤخذ على هذا البرنامج خلوه ، كما يشير لينين ، من أية إشارة إلى دكتاتورية البروليتاريا ، ووجود بعض المواد الهزيلة والبعيدة عن اتجـــاه الطبقة العـاملة ، استغلها الانتهازيون وذهبوا في تأويلها أي مذهب .

مستقبل الرأسمالية

بول سويزي

ترجمة : محمود كبيبو

عندما اقترحت ان اتكلم عن « مستقبل الرأسمالية » ، لم اكن أعني تنبؤات محددة عن هذا المستقبل بقدر ما كنت اعني الطريق الأفضل والأكثر مردوداً لتحليله .

ليس سراً بالنسبة لمن اطلع ولو على بعض كتاباتي انني اتنبأ الرأسمالية بمستقبل اسود . ولكن هذا ليس جديداً ، فليس الماركسيون فقط ، بل هناك متطرفون أخر ، تبنوا نفس الرأي منذ مايزيد عن مئة عام . لقد تجاوزت الرأسمالية كثيراً من التكهنات حول مستقبلها ، وهي ستتجاوز كثيراً منها

أيضاً ، ولكن رغم ذلك تبقى المشكلة التحليلية للتنبؤ حول مستقبل الرأسمالية نفس القيمة ، كأي وقت مضى .

سأتطرق إلى ثلاثة طرق تحليلية مختلفة ، وسأوضح لماذا اعتبر الطريقتين التقليديتين ، والاوسع انتشاراً ، خطأ ولماذا اعتبر الطريقة الثالثة التي من وضعي اكثر قدرة على معالجة المشكلة المطروحة .

الطريقة الأولى هي الطريقة المميزة بالنسبة للاقتصاديين البورجوازيين ، وللأسف بالنسبة لنوع معين من الماركسيين الذين يركزون على مايسمى بنظرية الانهيار . هذه الطريقة توجه نظرها بصورة رئيسية إلى دينامكية الرأسمالية في البلدان المتطورة في اوربا الغربية واميركا الشمالية . إنها تميل إلى طرح اسئلة مثل : هل تمكنت البلدان الرأسمالية من وضع التأرجحات الاقتصادية فيها تحت مراقبة معقولة ؟ ماهو وضع مشكلة التقنية والأتمتة وقدرة الرأسمالية على السيطرة على التغيرات التقنية ؟ ما الحال بالنسبة للتجارة العالمية وتغير سعر النقد العالمي ؟ إلى اية ازمات يقود اقتصاد الترومستات الحالي ؟ وغير ذلك . هل يمكن حل كل هذه المشكلات في اطار نظام اقتصادي يقوم على الملكية الخاصة ويعتمد على السوق ويتحدد بالربح ؟ إن من عاش ، لفترة ما ، في الوسط الجامعي للولايات المتحدة الامريكية يدرك ان ماذكرناه هي الموضوعات المركزية التي يدور الحديث حولها دائماً عندما يطرح السؤال عن مستقبل الرأسمالية .

أظن انه ليس من حاجة لي لأن اقنعكم بأن هذا الاطار لايكفي مطلقاً لتحليل مستقبل الرأسمالية ، اذ أن هذه لاتقتصر في الواقع على البلدان المتطورة التي هي الموطن التقليدي لها ، والتي انطلقت منها ، وهي لاتعيش في

محيط سابي لاينطلق منه أي رد فعل ، بل تعيش كجزء من المجتمع والاقتصاد العالميين بكليتها وتطورها يتأثر بشكل حاسم بالتأثر المتبادل بين البلدان المتطورة الرأسمالية ومحيطها ، الذي هو اكبر بكثير من العالم المتقدم الرأسمالي ذاته . نستطيع القول بالنسبة للسكان والانتاج ان « العالم الأول » يضم حوالي ٢٠٪ من سكان العالم وينتج حوالي ٦٠٪ من انتاجه ، بينما تحوي البلدان غير الرأسمالية أي الشيوعية ، ذات التخطيط المركزي حوالي ٣٠٪ من سكان العالم وتنتج حوالي ٣٠٪ من انتاجه . والباقي يتوزع على مايسمى اليوم بصورة عامة العالم الثالث الذي يقطنه ٥٠٪ من سكان العالم ولكنه لاينتج سوى ١٠٪ من انتاجه .

انني استعمل تعبير « العالم الثالث » ليس فقط لأنه اصبح من التعابير المقبولة من الجميع ، بل لأنه ايضاً قصير وسهل الاستعمال . ولكنني احب ان اؤكد انه ليس تعبيراً مصيباً . ان العالم الثالث هو في الواقع ليس عالماً بذاته ، بل هو جزء من العالمين الآخرين ، وانني أرى ان هذا ذو أهمية اذا ما اريد فهم مشكلة مستقبل الرأسمالية بكليتها .

اما الطريقة الثانية فتراعي حقيقة أن البلدان الرأسمالية المتطورة لا تعيش بمفردها ، وانما في محيط كبير كماً وفعال كيفاً . ولقد اصبح هذا مُقراً من قبل مدرسة انتقائيـــة في الاقتصاد الرأسمالي اشتهرت منذ الحرب العالمية الثانية تحت اسم « اقتصاد التطور » ولاقت رواجاً كبيراً . ويبدو ان نفس الشيء يصح بالنسبة للنظرية الاقتصادية للاتحاد السوفياتي والبلدان الاخرى في العالم الاشتراكي . ترتكز هذه النظرية على الفرضية القائلة ، ان زمناً قد مر كان فيه العالم كله متخلفاً ؛ بعد ذلك اجتازت منطقة في غرب

أوروبا خطاً حرجاً وبدأت تتطور على الطريقة الرأسمالية . ولكن لماذا تم الأمر على هذا الشكل ، فهو سؤال مختلف عليه ولا يلعب دوراً حاسماً بالنسبة للتكهن عن مستقبل الرأسمالية اليوم . لقد استطاعت البلدان المتطورة ، كما يرى والت روستو احد العقائديين القادة للمؤسسة الليبرالية في امريكا اليوم ، ان تتقدم بخطى مربعة عبر بضع مئات من السنين وتترك وراءها بقية العالم على الحالة الأولية للتخلف . ثم كنتيجة للحربين العالميتين وحوادث تاريخية اخرى مختلفة انتزع جزء من العالم المتخلف نفسه منها وبدأ تنمية نفسه بتغيير البنى الهيكلية والمؤسساتية في الاقتصاد على طريقة التخطيط المركزي ، مع ملكية الدولة لوسائل الانتاج والمراقبة العامة للاقتصاد . وهكذا نجد العالم الآن ، وعلى هذا الأساس ، مقسماً لا الى قسمين فقط ، بل الى ثلاثة اقسام : ذاك الذي حقق نهضته منذ بضعة قرون ويضم اليوم البلدان الرأسمالية المتطورة . والثاني وهو الذي بدأ نهضته في وقت متأخر وبواسطة نظام التخطيط المركزي ، وأخيراً اولئك الـ ٥٠٪ من سكان العالم الذين بقوا في حفر الانطلاق غائصين في مرحلة التخلف ، والذين يسمون لذلك اليوم بالعالم الثالث .

تحت هذه الظروف نرى العالم الثالث ، انطلاقاً من امكانيات التطور والتحول التكنولوجي وتراكم رأس المال والتقنية وتحسن مستوى المعيشة باستمرار الخ ... ، مدفوعاً برغبة كبيرة لأن يحقق لنفسه نفس الازدهار ويتمتع بنفس الثمار . ولكن أي طريق من الطريقين سينتقي ويسلك ؟ على الطرف المقابل نرى ان كلا من النظامين ، الرأسمالية العليا والشيوعية ، يرى ان مستقبله سيتحدد بشكل حاسم بمدى تمكنه من ربح القسم الكبير ، والذي يشكل نصف سكان العالم ، الى جانبه وضمه الى منطقة نفوذه .

ان النظام الذي سينجح في الحاق العالم الثالث به سيكون في النهاية المنتصر في ما يسمى اليوم بالسباق الكبير بين النظامين . اننا نلاحظ ان هـــذه هي الايديولوجيـــة الأساسية لجميع المؤسسات الليبرالية في الولايات المتحدة الاميركية ولمساعديهـــا وانصارها في البلدان الأخرى . وعلى هذا يدور كل شيء حول الغاية الوحيدة ، وهي كسب العالم الثالث الى جانب الرأسمالية ووضعه في خدمتها . والى نفس الهدف تصبو الايديولوجية السوفياتية منطلقة من التعايش والسباق السلمي للنظامين . نرى إذن نظريتين مختلفتين من حيث الاسلوب ولكنهما يحملان نفس المنطلق الايديولوجي .

احب ان اشير الى ان الطريقة الثانية افضل من الأولى وتتفوق عليها في مراعاتها للمحيط الذي تعيش فيه البلدان الرأسمالية المتقدمة ، ولكنها رغم ذلك تقود الى الضياع وليس لها اية قيمة تنوية . ويعود السبب الرئيسي في ذلك الى انه من الخطأ الفاحش أن نتصور عالم القرن الخامس عشر أو مرحلة اخرى قبله وكأنه كان يعيش في حالة تخلف كالتي يعيشها العالم الثالث اليوم . نستطيع أن نقول ان العالم كان، حسب المقاييس العلمية الحالية ، غير نام ؛ ولكننا لانستطيع أن نقول ولا بأي حال انه كان متخلفاً حسب مفهوم التخلف السائد اليوم في افريقيا وامريكا اللاتينية والقسم الأكبر من آسيا . في الواقع بلغت كل قارة ، يستثنى من ذلك ربما امريكا الشمالية ، يوماً ما مستوى رفيعاً من الحضـــارة . والمستوى المادي والحضاري والعقائدي المنتشر اليوم في أجزاء مختلفة من عالم اليوم المتخلف هو بالنسبة لمقـــاييس ذاك الزمان ، ومن بعض النواحي بالنسبة لمقاييسنا الحالية ، ذو مستوى رفيع .

ان التصور الميكانيكي القائل إن كل بلد كان يعيش في حالة التخلف حتى

قفزت فجأة منطقة صغيرة الى الأمام وتركت البقية خلفها هو تصور ليس له اية علاقة بالواقع . الحقيقة ان الرأسمالية في بلدانها الأولى توسعت منذ البدء بواسطة السيطرة والنهب والاستغلال وتغيير العالم المحيط بها الذي كانت تعيش فيه . كانت نتيجة ذلك ان سحبت الثروة من الأطراف الى المراكز ونتج عن هذا تحطم الانظمة الاجتماعية السائدة في الأطراف وتحولها الى أذناب مرتبطة بالمراكز . هذا هو احد وجوه الميدالية . أما وجهها الآخر فهو ان الثروة المفهومة من العالم الخارجي ، أي من الأطراف ، والمصبوبة في المركز توافقت مع القاعدة الاساسية للتطور السريع لهذا الأخير . هذا هو الأساس الاقتصادي والاجتماعي الواقعي لنهضة « العالم الأول » ، وانه لمن المشكوك فيه فاذا كانت هذه العملية ستتم لولا استغلال الأطراف .

لقد استغرقت هذه العملية طبعاً بضع مئات من السنين واتخذت دائماً أبعاداً اكبر . ولا نستطيع ان نرجعها الى القرن الخامس عشر أو السادس عشر ، بل إنني اميل الى الموافقة على تحاليل (أوليفر كوكس O. Cox) في كتابه The Foundation of Capitalism التي تعتبر البندقية منذ القرن السابع والثامن دولة رأسمالية امتدت الى البلاد المحيطة فسيطرت عليها ونهبت ثرواتها ثم طورت حضارة بورجوازية بمستوى عال . بعد ذلك مباشرة تكررت العملية في عديد من دول المدن الايطالية ، وكذلك في مدن الهانزا في شمال اوروبا . واخيراً انتقل مركز ثقل هذه العملية مع ربط مناطق ماوراء البحار بالخطوط التجارية — إنني لا اتكلم هنا عن « اكتشاف العالم الجديد » كما تلاحظون — الى اسبانيا والبرتغال ومن ثم الى هولندا وفرنسا وانكلترا وتحت سيطرة هؤلاء نفذت الرأسمالية التجارية الى كل زاوية في العالم . وبهذا لم تكن العملية قد انتهت . ففي مجرى

القرن التاسع عشر دخلت مراكز رأسمالية اخرى وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية والمانيا واليابان الى المخطط . وفي نهاية القرن التاسع عشر تم استقطاب العالم بشكل كامل وواضح : في جهة مركز صغير نسبياً ، متطور ورأسمالي ، يتركز في بلدان قليلة في اوروبا الغربية وامريكا الشمالية بصورة رئيسية ، وفي الجهة الاخرى مناطق الاطراف الواسعة التي تعاني من التخلف ، والتي شكلت قاعدة المركز التي كان يجلب منها القسم الاكبر من حاجياته . لنر الآن ماذا حصل مع البلدان والمناطق المستعبدة والمستغلة في كل حالة ، حيث كان النظام الاجتماعي القائم لايتفق وعملية استغلال المستعمرين او يقف عثرة في طريقها - وهذه الحالة كانت في كل مكان - كانت تستعمل القوة ضد هـذا النظام ، ثم يحطم . وكانت تحدث في كل مرة نتيجة لهذا عواقب وخيمة على الحضارة والشعب المحليين .

لم يكتف البرتغاليون والاسبان في جريهم الجشع وراء الذهب بالسيطرة على كل ماوجدوه ، بل اجبروا السكان المحليين على العمل في المناجم حيث كانوا يعاملون كالحيوانات . ففي المنطقة الكاريبية أفني جيلان الى ثلاثة اجيال من السكان المحليين افناء كاملاً . وفي أجزاء كبيرة من اميركا الوسطى والجنوبية لم يستطع الهنود الحمر المحافظة على البقاء الا بانسحابهم الى الغابات والجبال . ولكي يؤمن المستغلون اليد العاملة للمناجم والحقول الزراعية الواسعة لجأوا الى تجارة العبيد ، فحولت اجزاء كبيرة من افريقيا الى قطاعات لصيادي العبيد . ولقد أدى هذا بديهياً الى تحطيم المجتمعات التي اخذ منها العبيد ، وكذلك تلك الـتي ارسلوا اليها . في منطقة الكاريبي وفي اميركا الوسطى والجنوبية وكذلك في افريقيا - أي في كل مكان متصل بالاطلس الجنوبي - نستطيع ان ندرس بدقة الجهة

الثانية المقابلة لتراكم الثروات الضخمة عن طريق تجار العبيد في ليفربول او مرافئ اخرى انكليزية وفرنسية .

لقد اتخذ هذا التخلف المفروض والمسبب من الخارج في الشرق الاقصى مجرى آخر الى حد ما ، ولكنه لايقل عن الاول ، فقد نهب الهولنديون الهند ومارسوا واحداً من اكثر برامج المحافظة على استغلال العالم المستعمَر فعالية . إن أهم مثال على ذلك هم الانكليز في الهند - الـتي كانت تملك مرة ، ولفترة قصيرة قبل ظهور الانكليز على المسرح ، واحدة من أفقر واكثر قطاعات العالم تخلفاً .

الجهة المرئية من الميدالية كانت هنا ايضاً تجميع الثراء في المركز يقول E. Williams رئيس الوزراء الحـالي لـ ترينيداد وتوباغو في كتابه القيم (Capitalism and Slavery) ان الثورة الصناعية في انكلترا قد مولت بالارباح المباشرة او غير المباشرة الناتجـة عن تجارة العبيد الزنوج في شرق الهند . ويوجع Broohs Adams في كتابه The Law of Civilitzaion in Decay تمويل هذه الثروة الى نهب الهند . والاثنان على حق .

وبعد المحتلين ، القوات الخاصة للاستعباد، جاء اصحاب رؤوس الأموال - التجار ورجال المصارف والاداريون والمستشارون - الذين كانت قضيتهم الاولى تحويل المستعمرات وانصاف المستعمرات الى ينابيع دائمة للربح ولصالح المراكز . وأدت جهودهم الى نشوء نماذج اساسية للعلاقات الاقتصادية بين المراكز والاطراف . اذ تخصصت الاطراف بانتاج المواد الاولية اللازمة للمراكز واستخدمت في الوقت نفسه كسوق لبيع السلع الصناعية ، بينما امتلك رأسماليو المراكز معظم محلات الانتاج في الاطراف واخذوا حصة الاسد من الارباح .

نلاحظ اذن ان تخلف الاطراف المصطنع قد جمد وختم الى الأبد بينما وضع المركز في حالة تسمح له وبواسطة ثروات البلدان التابعة بأن ينمي نفسه باستمرار .

هذا النموذج للعلاقات بين مركز غني ومتطور واطراف مفقرة ومتخلفة لانجده في العلاقات بين البلدان الرأسمالية المتطورة والبلدان المستعمَرة او نصف المستعمَرة فحسب ، وان كان هنا اكثر حدة ووضوحاً من أي مكان آخر ، وانما نجده ايضاً في داخل كل من القطبين . ان بلداً كالبرازيل مثلا ، وخاصة مايتعلق بموارده الأرضية وامكاناته الجغرافية ، يعتبر واحداً من أغنى بلدان العالم ولكننا نلاحظ هناك ان الثروة والصناعة محصوران في مثلث صغير جداً بين ريودوجانيرو وبيلوهوريزونتي وساو باولو ، بينما تعيش بقية البلدان في تخلف وفقر مرعبين . نفس الشيء نجده في البلدان الرأسمالية المتطورة : المسافة بين هارليم والباركآفينو ميلان او ثلاثة اميال فقط - وهذا مثال واضح على وجود الفقر الفظيع والغنى الفاحش الى جانب بعضهما البعض . او عندما يلقي المرء نظرة من على سطوح كوبا كابانا في ريو على سفوح الجبال الساحرة ثم يدقق النظر قليلا فانه يجد هناك بيوت التنك المشهورة وهي بضع من اسوأ الأحياء الفقيرة الموجودة على سطح الأرض .

تطور في جهة وتخلف في جهة اخرى يشترطان بعضهما بشكل متبادل وبطريقة ديالكتيكية . بهذا يكمن منذ البدء تاريخ الرأسمالية . وهي تعيد نفسها في كل درجة من سلم تطورها . انها وجها الميدالية الرأسمالية اللذان لاينفصلان عن بعضها كتوأمي سيام . وإذا احد لم يدرك هذا ولم يفكر به يومياً ، فانه يكون قد ضلل مرة بعد اخرى من قبل الدعاية التي تحاول ان تفصل أشياء

ملازمة لبعضها بالضرورة وأن تصف التطور على انه الجهة الجيدة والتخلف على انه صدفة الجهة السيئة ، لكي تقتنعنا أنه من الممكن وجود الواحد دون الآخر . هذا اسطورة ، وطالما أن أحداً لا يكتشف الاسطورة في هذا الادعاء فلا يمكنه أن يقوم بتحليل جذري وواقعي لمشكلة التنبؤ بمستقبل الرأسمالية .

إنني اعيد : التطور الرأسمالي ينتج اجبارياً تطوراً على احد الاقطاب وتخلفاً على القطب الآخر . ان البلدان الرأسمالية المتطورة والبلدان المتخلفة ليسا عالمين منفصلين ، بل هما الجزء العلوي والجزء السفلي لعالم واحد . لهذا فان تعبير « العالم الثالث » مضلل ويجب ان يتخلى عنه . ولكن هذا قد جاء متأخراً لأن تعبير « العالم الثالث » اصبح ثابتاً في استعمال اللغة المعاصرة . وعلى كل حال يجب ان نفكر دائماً ان الامر يتعلق بسهولة الاستعمال ، إذ أن هذا المفهوم ليس تعبيراً عن واقع اجتماعي — اقتصادي .

إذا نظرنا الى مسألة العالم هذه ، مسألة التطور والتخلف بعمق فاننا نستطيع ان نصيغ نموذجاً مترابطاً وواضحاً أنه من العبث ان نتوقع او نأمل ان تؤدي العلاقات بين البلدان المتطورة والبلدان المتخلفة الى تطور هذه الأخيرة. التجارة والاستثمارات والمساعدات الحكومية لن تجدي أي شيء وماهي في الواقع إلا الوسائل التي تستغل بواسطتها البلدان المتقدمة البلدان المتخلفة وتجمدها في وضعها الراهن . ما يتعلق بالتجارة معروف من قبل الكثيرين . إن مبادلة المواد الأولية بالسلع المصنعة تحتوي ضمناً الاتجاه الى أن تنتج نفسها ثانية وتزداد عمقاً بدلاً من أن تؤدي الى تغيرات في الترتيب الهيكلي للاقتصاد، إذ انه من المعروف أن تغير الاسعار في علاقات الاستيراد والتصدير في وقت السلم يسير لغير صالح

البلدان المصدرة للمواد الأولية . ان علاقات التبادل التجاري الخارجي لا تتضمن أية عوامل لصالح تطوير البلدان المتخلفة بل بالعكس . وهذا يصح ايضاً بالنسبة للاستثمارات التي يقوم بها المركز في الاطراف ، على الرغم من ان ممثلي الاقتصاد الرأسمالي يدّعون طبعاً عكس ذلك . لا أريد ان أحاول الغوص في بحث نظرية الاستثمارات الخارجية ، ولكني احب ان الفت انتباهكم إلى عــدد من الوقائع الاحصائية التي لا يمكن فهمها مطلقاً لو كانت تقديرات الاقتصاديين البورجوازيين بالنسبة للاستثمارات الخارجية صحيحة .

سآخذ هنا ارقاماً عن الاستثمارات الخارجية لكل من بريطانيا والولايات المتحدة في فترات نشاطها الاعظمي . تتكلم هذه الارقام لغة واضحة عن أثر الاستثمارات الخارجية على المناطق المتخلفة والمناطق المتقدمة .

لقد بلغت الاستثمارات الخارجية للاستعمار الانكليزي ذروتها في الخمسين سنة التي سبقت الحرب العالمية الاولى ، فثمر في الخارج في الفترة الزمنية الممتدة بين عام ١٨٧٠ وعام ١٩١٣ ، حسب المصادر المعترف بها ، مبلغاً صافياً قدره ٢،٤ مليار جنيه استرليني . يبدو من ذلك الوهلة الاولى وكأن بريطانيا قد قدمت لبقية العالم مبلغاً ضخماً من مواردها الخاصة . لا شك ان هذا المبلغ ضخم ، وهو يساوي حوالي ٥٠ مليار مارك ذهبي ، فاذا علمنا ان القوة الشرائية للمارك في ذلك الوقت تعادل ضعف قيمته اليوم ، يكون مجموع الاستثمارات الخــارجية لبريطانيا في في النصف قرن قبل الحرب العالمية الاولى وحسب قيمة النقد الحالية حوالي ١٠٠ مليار مارك اي مــا يعادل ٢٥ مليار دولار تقريباً . ولكن لا شك ان لهذه الميدالية وجهها الآخر ايضــاً ، وهو الدخل الناتج عن هذه الاستثمارات . في نفس الفترة الزمنية ، اي من عام ١٨٧٣ حتى عام ١٩١٣ بلـغ

الدخل الصافي البريطاني الناتج عن الاستثمارات الخارجية هـذه ٤،١ مليار جنيه استرليني . اذا قارنا المبلغين ببعضهما يتبين لنا ان مدخولات الاستثمارات الخارجية تزيد عن معدلها بما ينوف عن ٧٠٪ ، وهكذا نرى ان هـذه النقود كانت تنفق باليد اليمنى وتسترجع باليد اليسرى زائدة ٧٠٪ . من ساعد من إذن ؟ انه لواضح ان بقية العالم التي اصبحت مدينة لبريطانيا بسبب آلية الاستثمار هذه ، هي التي ساعدت بريطانيا وليس العكس .

لنأخذ تجربة الولايات المتحدة الاميركية في هـذا المجال منذ الحرب العالمية الثانية . سأقتصر هنا على الاستثمارات الخارجية المباشرة للتروستات الاميركية التي تعتبر ذات أهمية كبرى في عالم اليوم . إن الارقام التي يمكن مقارنتها بتلك التي استشهدنا بها عند تكلمنا عن بريطانيا هي بالنسبة للفترة الزمنية الممتدة من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٦٣ على الشكل التالي :

الرأسمال الخارج من الولايات المتحدة إلى بقية العالم للاستثمار بلغ ١٧،٤ مليار دولار ؛ أما الدخل العائد إلى الولايات المتحدة من هذه الاستثمارات فقد بلغ ٢٩،٤ مليار دولار . مرة اخرى يتبين لنا ان المدخولات تزيد عن المصروفات بما ينوف عن ٧٠٪ . لقد حاولت بناء على ذلك ان اضع قانون سويزي الأول للاستثمارات الخارجية الذي يقول : ان الدخل العائد من الاستثمارات الخارجية يزيد عن الرأسمال الخارج بحوالي ٧٠٪ . انني اضع هذا القانون بناء على طريقة علمية جيدة اذ اخذت مثالين من الواقع على الأقل . وانـني سأنتظر العلماء الشباب الذين سيفحصون هذا القانون بالنسبة لأية حالة اخرى يقدمها الواقع ، وانا متأكد من انهم سيؤكدون صحته أيضاً .

لنكرر السؤال مرة اخرى : من يأخذ ثروة من ؟ والجواب جلي واضح.

لننتقل الآن إلى ما يسمى ، وبا لسخرية ، مساعدات البلدان المتقدمة للبلدان المتخلفة . نجد ان الأمر واضح كذلك . ونستطيع هنا ايضاً ان نضع قانوناً : كلما ازدادت المساعدات كلما قل النمو . واسباب ذلك كثيرة . ان قسماً كبيراً من المساعدات ذو صبغة عسكرية والغاية منه كما يدعى ، الدفاع ضد الشبح المخيف للعدوانية الشيوعية — ولكن كل من بلغ العاشرة من عمره يعلم ان هذه الآليات العسكرية المقدمة الى البلدان المتخلفة ليس لها اية غاية سوى دعم حكومات رجعية داخل بلدانها ذاتها — وبغض النظر عن هذا فان القسم الاكبر من المساعدات الاقتصادية البحتة ليس لها اية علاقة بالتنمية الاقتصادية ، لأن قسماً كبيراً منها يتسرب إلى جيوب البيروقراطيين والموظفين الفاسدين في البلدان المعنية ، وقسم آخر يستخدم لسد الديون والفوائد إلى بنوك البلد الذي قدم المساعدة المزعومة . تقريباً لا يبقى اي شيء للتنمية الاقتصادية . أحب هنا ان استشهد بتصريح لموظف كبير في ادارة المساعدات الخارجيه الاميركية هو D.A. Fitzgerald . لقد اجرت معه الصحيفة الاميركية U.S. News and World Report مقابلة بعد تقاعده جاء فيها قوله : « إن نقد المساعدات الخارجية ينطلق دائماً من الفرضية ، وكأن الغاية منها هي تنمية الاقتصاد في بلدان اخرى . لكن هدفنا في الواقع لم يكن يوماً كذلك . لقد كان هدفنا دائماً الحصول على نتائج تصويت حسنة في الأمم المتحدة، أوان تمنع بلداً ما من ان يقدم للسوفييت قواعد جوية او ما شابه ذلك من الاسباب » .

الهدف الوحيد الذي لايذكره هو التنمية الاقتصادية . ان هدف المساعدات الخارجية يكمن اذن ، بكلمات أخرى ، في المحافظة على الوضع

الراهن في العالم الذي يجمد الوضع السيء في البلدان المتخلفة بينما يدعم التحسن المستمر في البلدان المتقدمة . من هذا الواقع يصبح واضحاً أية أهمية يجب أن نعيرها في الواقع للثورات الاشتراكية في القرن العشرين . انها ليست ، كما يريد الايديولوجيون البورجوازيون إقناعنا ، عبارة عن صدف تاريخية تمت في فترات فوضى الحرب ، ونتائج لانتشار أفكار ماركس ولينين . بل هي ، وبمنظور تاريخي ، تعبير عن كفاح لا يمكن تجنبه تقوده البلدان المتخلفة لتحرر نفسها من الرداء الارغامي الذي زجت فيه منذ قرنين . كأسرى النظام الرأسمالي القائم لاتستطيع البلدان المتخلفة أن تنتج الا تخلفاً أكبر وأوسع . فقط خارج هذا النظام تستطيع هذه البلدان أن تبدأ استغلال طاقاتها لمصالحها الخاصة وتستطيع ، بكلمات أخرى ، ان تحرك عملية التنمية الاقتصادية على طريق التنمية الصحيح .

هناك عدد من الأمثلة التي تشير الى نموذج متعاكسة في تطوير البلدان المتخلفة . فهناك بلدان تتطور وهي داخل الرداء الارغامي للنظام الراسمالي العالمي وبلدان اخرى تتطور وهي خارجة . واذا نظرنا الى هذه البلدان عند بدء عملية التنمية نرى انها كانت تعيش حالات متشابهة . الصين والهند مثالان جيدان في هذا المجال وهما على المدى البعيد من أهم الأمثلة . الصين طورت نفسها ، ولكن ليس حسب النموذج تقدم/تخلف الذي يعيد انتاج نفسه والذي هو الطابع المسيطر في البلدان المستعمرة . على عكس ذلك نرى الهند تتطور ببطء شديد ، لا بل نستطيع القول انها لاتحقق أي تقدم ملحوظ – لايمكن الاعتماد على الاحصائيات بشكل كامل ولكن حتى الدراسات المتفائلة لاقتصاد الهند تشير الى ان نسبة النمو لدخل الفرد منخفضة جداً ، يضاف الى ذلك ان الأرقام الوسطية التي يقدمها لنا الاحصاء

ليس لها مدلول واقعي كبير ، لأن الأكثرية قد تخسر بالرغم من ازدياد الدخل الوسطي، وهكذا هو الحال على الأرجح في الهند — ولكنا نرى بين فترة وأخرى أن الجوع يمتد إلى أجزاء جديدة من البلاد ، مما لاشك فيه بأنه سيمتد الى أجزاء أخرى في السنين القادمة .

جزءا كوريا هما ايضاً مثال معبر ، علماً ان مقياس المقارنة هنا أصغر . وكذلك جزءا فيتنام ، على الرغم من أن الصورة هنا قد شوهت بواسطة التدخل الاميريكي الواسع . رغم ذلك نجد بوضوح تام ان طرفاً ينمي نفسه بطريقة عقلانية وبسرعة ملحوظة ، بينما يشـــير الطرف الآخر إلى خليط عجيب من التخلف والتشويه .

بالنسبة للغربيين يبرز الاختلاف بيناً بين كوبا من جهة وبقية بلدان امريكا اللاتينية من جهة أخرى . في كل مكان نستطيع أن نقوم بعملية المقارنة هذه ، ويبدو لي أن الحكمة التي سنحصل عليها من ذلك واضحة كل الوضوح .

أية نتائج علينا أن نستخلصها من هذه العملية التاريخية ؟

هل تحتوي النظرة التي تطلب من البلدان المتخلفة في خضم « السباق الكبير » أن تتبع الخط الرأسمالي أو الخط الاشتراكي مضموناً واقعياً ؟

هل هناك أي توقع بأن البلدان الرأسمالية المتطورة ستضع برنامجاً جماعياً وتتمكن من تطبيقه بنجاح في البلدان المتخلفة ؟

انني شخصياً اعتبر هذا أحلاماً بغض النظر عن الوشاح العقائدي الذي تتشح به هذه الاحلام .

الحقيقة تبقى حقيقة وهي أن البلدان المتخلفة ستبقى محكوماً عليها بالموت اذا بقيت أسيرة النظام الرأسمالي العالمي .

من المؤكد أن الأمر بالنسبة للبلدان المتخلفة سيبقى كذلك . ويعمل على تثبيت هذا الواقع أداة صدّرت من العالم الرأسمالي الى البلدان المتخلفة وانتشرت بشكل واسع هناك ، هذه الأداة هي الطب الحديث الذي أدى الى تراجع كبير في نسبة الوفيات — علماً انها لم تزل مرتفعة في اجزاء كثيرة من البلدان المتخلفة . على الطرف الآخر نجد ان ارتفاعاً مناسباً في الطاقة الانتاجية لم يحدث لا بل ان الطاقة المتوفرة لم تستغل استغلالاً كاملاً . نجد اذن ان الزيادة الكبيرة في عدد السكان لا يرافقها نمو اقتصادي مناسب . انها حقيقة بسيطة ان عدد سكان العالم سيتضاعف في الثلاثين او الاربعين سنة القادمة بغض النظـــر عن تطور نسبة الولادات في الفترة الزمنية هذه ، وبالتأكيد سيكون نصف هذه الزيادة السكانية على الأقل في البلدان المتخلفة . وليس من احد يستطيع جدياً ان يقول ان البلدان المتخلفة على ضوء البناء الهيكلي والمؤسسات الحالية القائمة هناك ستستطيع ان تقدم الغذاء لهذه الزيادة السكانية ، ومن باب اولى ان تستطيع رفع مستوى التغذية الحالي .

لقد صرح وزير الزراعة الاميركي فريمان ، بأن السبعينات ستكون « سنوات الجوع » . وفي عام ١٩٦٦ ردفيدل كاسترو قائلاً : « ان كلام فريمان ليس صحيحاً — السبعينيات ستكون سنوات الثورة ، لأن ردة فعل النـاس في عالم اليوم سوف تختلف عن ذي قبل : سوف يفضلون الموت من رصاصة على الموت البطيء من ألم الجوع » .

اعتقد ان كاسترو قال بذلك حقيقة بسيطه ، انني لا ارى على ضوء توزع

القوى والمصالح والتنظيات والمؤسسات الحالية اية دلائل على ان البلدان الرأسمالية تستطع او تريد ان تغير اي شيء في الوضع الحالي . لا اجرأ على كل حال ان اضع توقعاً دقيقاًعن الأشكال التي ستتخذها هذه الثورات وكم من الوقت ستحتاج لتكمل نموها . من الممكن ، وهذا ما اعتبره محتملا جداً ، بأنها ستحدد مرحلة تاريخية كاملة . ان التطور التكنولوجي لاسلحة التدمير الشامل يجعل من الممكن التصور ان تتخذ البلدان الرأسمالية المتقدمة في وقت عاصفة شمشون وتنهي العملية كلها دفعة واحدة بأن تفجر العالم بأكمله . ولكن حلاً كهذا سيدمر الرأسمالية ايضاً .

ختاماً نستطيع القول ان مستقبل النظام الرأسمالي ، من اي وجه نظر المرء اليه ، لن يكون زاهراً بأي حال .

المعرفة عند ابن خلدون

سهيل العثمان

أعجب الرأي العام المثقف بابن خلدون اعجابا يستحقه ، فهو مؤسس علم الاجتماع حقا وصاحب نظرات واقعية نافذة في المنهج التاريخي ، ومطبق لطريقة المسح الحضاري الشامل على البيئة الاجتماعية المعاصرة له . وستظل مقدمته زمناً طويلا مصدر وحي للعديد من النظريات الجديدة وحافزاً فعالاً للحياة الفكرية. ولكن أعجاب الباحث بعبقرية ابي زيد — وهذه كنية علامتنا — وجهده لا يعفيه من تجنب منطق العواطف الذي يتعاظم سلطانه على النفوس بالتدريج مصوراً لها ابن خلدون و كأنه قد خلق على مثالها ، فإن كانت علمية تجريبية فابن خلدون علمي تجريبي ، وان كانت جدلية «ديالكتيكية فابن خلدون جدلي ديالكتيكي واذا كانت عقلية فهو عقـلي . . . ويشتد الخطر ذاته بشأن آرائه الاجتماعية والسياسية ، حتى بات المرء يخشى على شخصية ابن خلدون الخاصة ان تضيع معالمها وعلى غنى فكره أن يفتقر لأن من يطلب عنده رأيا معينا يهمل ما يعارضه عن عمد او عفوية .

ولذا فقد خصص هذا البحث لكشف حقيقة الفكر الخلدوني في جانب من أهم جوانبه ومن أقلها حظوة لدى الباحثين وأكثرها تعرضاً لسوء الفهم وهو نظرية المعرفة لديه. وباختصار ما هي قوى المعرفة وما هي حدودها وقيمتها عند ابن خلدون؟

وقبل أن نتفحص أبراج المعرفة الخلدونية نلقي من خارجها نظرة سريعة على الارجاء التي تطل عليها بتذكر صورة الكون كما رسمها ابن خلدون.

صورة الكون :

مفكرنا روحي ومادي يعترف لكل من المبدأين الكبيرين بوجوده، وبوجود أصناف من الموجودات منتمية اليه، فهو ليس مادياً خالصاً ولا روحياً محضاً — وان رفع الروح فوق المادة — ولا عقلياً مثالياً. والموجودات الجثمانية او المادية تتدرج من العناصر الأربعة وادناها التراب فالماء فالهواء فالنار، يعلوها أفق الأفلاك فعالم التكوين الذي يضم المعادن فالنبات فالحيوان فالانسان وهذا آخر شهودنا الحسي او ادراكنا المادي. ووراء هذه الكائنات المادية توجـــد النفوس المحركة والمدركة ومنها النباتية والحيوانية والانسانية. وتجتمع في الانسان النفوس الثلاث، وتعـــد النفس الانسانية بالذات وسطا بين العالمين الروحي والمادي فهي من اصل روحاني الا أنها متعلقة بالجسد، وأما الروحانية الخالصة فيمثلها الملائكة، وخلاق الجميع مما نعلم وما لا نعلم هو الله الواحد الكامل الذي لا يشبه شيء مع بعده عن المادة اكثر من بعده عن الكائنات الروحانية. وفي الكون شياطين نذكرها اتماماً للصورة ولأنها تحشر نفسها أحياناً في عمليات المعرفة. وكل أفق متصل صعوداً وهبوطاً بالأفق الذي يسبقه [1] والذي يليه من

---

(١) مقدمة ابن خلدون — تحقيق علي عبد الواحد وافي، نشر لجنة البيـــان العربي الطبعة الأولى ١٩٥٧، ص ٣٥٢ — ٣٥٧.

آفاق الموجودات ، فالتراب مثلا مستعد بالاستعداد القريب للمائية ، والماء مستعد للهوائية ، والهواء مستعد للنارية، بل قد ينقلب الاستعداد الى فعل متحقق فتتحول العناصر الى بعضها البعض، وأعلى أفق المعادن متصل بأدنى أفق النبات كالحشائش وما لابذر ، وأعلى أفق النبات كالنخـــل والكرم متصل بأدنى أفق الحيوان كالحلزون والصدف التي لاتزيد الا بقوة اللمس، وأما أعلى أفق الحيوان كالقرد المتمتع بالادراك فتصل بالانسان ، والنفس الانسانية مستعدة للملائكية ، بل إن بعضها يصبح ملائكياً بالفعل لبرهة من الزمن .

وليس من مهام هذا البحث أن يتملى بروعة هذه اللوحة الاخاذة للكون والتي كانت وستظل مصدر الهـــام للباحثين ويمكن أن تقوم بالدور نفسه لدى الشعراء ، ولكن ما يهم بحثنـــا هو انعكاس هذه اللوحة على طبيعة المعرفة وأصنافها وحدودها .

وتبدأ المعرفة بالحيوان وتصعد في الانسان حتى تصل الى أعلى درجاتها في الملائكة .

ونستطيع ان نقسم المعرفة عند ابن خلدون الى ثلاثة اصناف هي: الحسية والتجريدية والروحية .

المعرفة الحسية :

يضم هذا المستوى الاحساسات وما ينتج عنها من ادراك وتخيل وذاكرة واذا ما استخدمنا المصطلحات الخلدونية — وهي اصطلاحات الفلسفة القديمة عموماً — قلنا إنها تحصل من قوى الحس الظاهر والباطن[1]، اما الحس الظاهر فهو الحواس

(١) المقدمة : الصفحات السابقة .

الحس كالسمع والبصر ، وأما الحس الباطن فأوله الحس المشترك الذي يدرك عدة احساسات في آن واحد كادراك شكل الرجل وصوته، وثانيه الخيال وهو القادر على تمثل صور المحسوسات من غير ان تكون موجودة أمام الحس ، وثالثه القوة الواهمة التي تدرك المعاني المرتبطة ببعض الاشخاص أو الكائنات كحنان الأب وعداوة الذئب ، ورابعه القوة الحافظة وهي الذاكرة .

ولقوى الحس الظاهر والباطن آلات جسمية . فآلات الحس الظاهر هي الحواس الخمس ، ويقتسم الحس المشترك والخيال البطن الأمامي من الدماغ، وتقتسم الواهمة والحافظة البطن الخلفي منه . ويأخذ كل حيوان من هذه المعرفة بنصيب ، على ان للقرد من بينها القدح المعلى فيها ، وهي متوفرة للانسان .

والآن ما هي قيمة هذه المعرفة ؟

انها تقدم صور الكائنات الواقعية الفردية في هذا العالم ، فهي من هذه الناحية مفيدة ، وهي مفيدة أيضاً لأنها بداية المعرفة وبها تستعد النفس لقبول المعقولات او تبدأ الصعود نحوها ، واهم ميزة لها انها معرفة عيانية مباشرة لمرتأت نتيجة استنتاجات وأقيسة وابن خلدون يقدر المعرفة العيانية ولولا سوء سمعة الحدس عنده لانه مرادف للتخمين(1) لنعته بأنه حدسي .

ولكن هذه المعرفة يجب ألا تتعدى حدودها فلا يحق لهـا أن تقصر الكون على مشاهداتها لان الكون فيه الموجودات الروحانية التي تعجز هي عن ادراكها ، ومع أنها بداية التفكير والاستعداد لقبول المعقولات فان الانصراف اليها يشغل النفس عن المعارف الاعمق لانها استغراق في الجسم وحواسه ودماغه

(1) المقدمة : ص ٣٧٩-٣٨٢ .

استغراقاً ينافي التحليق في عالم الارواح . وان النفوس التي تقتصر على المعرفة الحسية نفوس منحطة المرتبة غير متسامية ولا ننس أن هذه المعرفة مشتركة بين الحيوان والانسان . ومن شروط تحصيل المعارف العميقة الروحية الانصراف عن الحس .

المعرفة التجريدية :

وهي ثمرة قوة يسميها غالباً الفكر[1] الذي يعتبره مرادفاً للفؤاد ، وقد يسميه العقل وان كان هنا عقلا غير خالص ولا صاف خلوصه وصفاءه في المرحلة الثالثة ، ومهمة الفكر الأساسية هي التصرف بالصور الحسية سواء بانتزاعها من المحسوسات أو بالتركيب بين بعضها بعضاً ، فهي قوة تجريد واستنتاج ومحاكمة، وتستعين على انشاء الأفكار المجردة بالخيال ، الذي يكون صوراً تنطبق كل منها على عدد من المحسوسات ،وهي الأفكار او المعقولات الأولى ، ثم يكوّن صوراً تنطبق الواحدة منها على عدد من المعقولات الأولى فتنشأ المعقولات الثواني ، وما يزال الفكر يرتقي في التجريد حتى يصل الى الكليات البسائط كفكرة الجوهر ، وهذا العقل المتوسط أو الفكر أقسام ثلاثة أولها الفكر التمييزي يعرف الأشياء الطبيعية والصنعية وأسبابها بشكل يجعل الانسان قادراً على صنعها ويساعده بذلك على تحصيل معاشه وتحصيل المنفعة ودفع الضرر . وثانيها الفكر التجريبي الذي يتيح للانسان معرفة أصول المعاملة والآداب المناسبة للعمران البشري ،بما يساعد على تنظيم المجتمعات وحسن ادارتها وجودة التعامل فيها . وثالثاً النظري الذي يحاول

---

(١) المقدمة . ص ٩٧٤ - ٩٧٩

أن يكمل صورة النفس بمعرفة حقائق الموجودات المتجاوزة للحس من غير أن يكون لها هدف عملي .

والفكر قوة متوسطة بين الحس وبين العقل المحض،فهو يشبه الحس لأنه ذو آلة جسمية هي البطن الأوسط من الدماغ وعمله يكون في الصور الحسية انتزاعاً وتركيباً ، وهو من ناحية ثانية يحرك النفس نحو التعقل ويطمع أن ينال الحقائق العليا .

فما هي قيمة المعرفة التي يحصل عليها وما هي حدودها ؟

إن هذه المعرفة التجريدية من المزايا التي يتحلى بها الانسان ، وهي مقبولة إذا وعت مقامها ولم تشتط بطلب ما ليس لها . واذا كان إلزام المعرفة الحسية حد التواضع سهلا على ابن خلدون،فان الأمر لم يكن بهذه السهولة فيما يتعلق بالمعرفة التجريدية ، ذلك أن قوما من عقلاء النوع البشري اغتروا بها فجعلوها أعلى مرتبة من بين مراتب المعرفة وجعلوا أداتها ، وهي الفكر التجريدي،الاداة الأرقى في ميدان العلم ، ولذلك حكموه في العقائد يرفض منها ويقبل ، وأطلقوا يده في تصور الكون يرسم طبيعة والهيئة كما يشاء ، وحسبوه قادراً على معرفة كنه الوجود ، ولو انصفوا ما ظلموا انفسهم والعقائد والفكر ذاته ولعلموا أن الفكر ميزان الذهب لايمكن أن توزن به الجبال وأنه سجين علاقته بالحسيات يجرد منها أفكاره ، فان اقترب من الحسيات فقد فاتته الروحانيات ، وان ابتعد عن الحسيات وأمعن في التجريد،فاته الواقع وظل عاجزاً عن ادراك الروحانيات .

قال ابن خلدون في الصفحة ١٠٣٧ من المقدمة (ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الاحاطة بالكائنات والوقوف على تفصيل الوجود كله . واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادىء رأيه منحصر في مدار كه لايعدوها

والأمر في نفسه بخلاف ذلك ... ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات ، وكذلك الأعمى يسقط عنده صنف المرئيات .. ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات ... فاذا علمت بهذا فلعل هناك ضرب من الإدراك غير مدركاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك .)

فماذا يجوز لهـــذا الفكر وما لا يجوز ؟ متى ينجح ومتى يكون من الخائبين المخيبين ؟

ونبدأ بما لا يجوز فلعله يصور لنا الأزمة بشكلها الحاد .

ليس لهذا الفكر ان يكون حكماً في العقائد الدينيـــة الأساسية وما يصدر عنها من شرائع ومبادىء عبادة وأخلاق لأنها من مصدر أعلى منه هو المعرفة الروحية التي تمنح للانبياء .

وليس له أن يدعي الأمور التي تتجاوز الطبيعة كالله والملائكة والحساب والعقاب الأخرويين ، لأنه محتاج الى مقدمات ذاتية اولية قائمة على الواقع الحسي ، وأما تلك الآفاق فتتجاوز العيان الحسي الذي يقوم الفكر عليه ، ثم انه لا يجمع بين طرفي القياس الا بالحد الأوسط ، فان وجده فمن أين له أن يعرف مطابقته للواقع ؟ ولذلك فعلم الالهيـــات الفلسفي مرفوض (١) بعقول أفلاكه العشرة وبتصوراته عن كيفية السعادة الاخروية القائمـــة في نظر الفلاسفة على المعرفة وحدها ، فالفكر يفشل حين يقيس الغائب البعيد على الشاهد .

---

(١) المقدمة ، ص ١١٩٩ — ١٢٠٧

وليس له أن يعرف حقيقة الموجودات الطبيعية وماهياتها لانه يهتم بالكليات المجردة،على حين تمازج الموجودات الطبيعية المادة لتضيف اليها أموراً لم تحسب المجردات حسابها ، وربما أتى بمعلومات طبيعية صحيحة اذا ظل قريباً من الحس ، فتكون عندئذ صحتها آتية من شهودها الحسي لا من براهين الفكر المجرد ، ولكن مايحصل عليه الفكر في ميدان الطبيعيات ان صح فلا فائدة معاشية أو دينية منه ، فعلم الطبيعيات العقلي مرفوض [1] .

وليس له أن يحاول استخلاص المعادن الثمينة من الخسيسة عن طريق الكيمياء المعروفة آنئذ والتي تبحث عن حجر الفلاسفة والأكسير ، لان الطبيعة تكون المعادن الثمينة من العناصر خلال مدة طويلة مارة بأحوال متوسطة عديدة يعجز الفكر عن معرفتها ، وليس من المعقول أن يستطيع الفكر اختصار زمن طال على الطبيعة ذاتها وهي تتبع عادة أقصر الطرق ، وقد قضت حكمة الله أن تكون كمية المعدنين الثمنين محددة من أجل انتظام معاملات الناس وليس للعلم أن يخالف حكمة الله فعلم الكيمياء العقلي المجرد القديم مرفوض [2] . واذا توصل بعضهم الى انتاج المعادن الثمينة فعن طريق السحر، وهو من مرتبة المعرفة الثالثة ، لا عن طريق العلم المجرد .

وليس له أن يعرف الغيب بالتنجيم الذي يدعي معرفة الحوادث عن طريق معرفة أسبابها الفلكية، فان الكواكب ان كان لها تأثير على الحوادث فهو تأثير معقد غامض تستحيل الاحاطة به . وهبه عرف فانه لا يكفي لأنه جزء من

---

(١) المقدمة . الصفحات السابقة

(٢) المقدمة . ص ١٢١٥ — ١٢٢٥

الأسباب الفاعلة، والعلم لا يكتمل الا بمعرفة كل الفاعل والقابل والغاية والصورة وهيهات أن يتم له ذلك فعلم التنجيم مرفوض [1] ومرفوضة سائر وسائل الفكر التجريدي لمعرفة الغيب . اذن فما ذا بقي للفكر التجريدي ؟

بقي له أن يعين الانسان في حياته بتمكينه من انجاز الأعمال وصنع الأدوات والبيوت والأثاث والثياب واللوازم المفيدة .

وله أن يعين الانسان على التعاون الناجح في الحياة الاجتماعية . وذلك بتفصيل طرق المعاملة والادارة والآداب . على أن يستمد المبادىء من الشرائع الموحاة ، وعلى ألا يسرف في التجريد فالعلماء يفشلون في السياسة لأنهم أهل كليات مجردة لا تحسب حساب الواقع المشخص .

وله أن يدافع عن العقائد الايمانية بحججه وبراهينه لا أن يضعها أو يحكم عليها ، ولهذا فعلم الكلام الذي يقوم بهذه الوظيفة مقبول للمتعمقين وان لم يكن ضروريا للعامة المؤمنين وبخاصة أن المبتدعة والمنحرفة قد قلوا في زمن ابن خلدون كما يقول [2] .

وله أن يؤسس علوم رياضيات (تعاليا) مفيدة في البيع والشراء ومسح الأرض وتوزيع الارث . وله أن يؤسس علم الفلك (الهيئة) الذي هو بين الطبيعيات والرياضيات ، على شرط ألا يدعي معرفة حقيقة الافلاك والكواكب ، بل يعي أنه يتصورها بموجب ما تقتضيه حركاتها وحسب . فقد قال ابن خلدون من المقدمة (وهذه الهيئة صناعة شريفة . وليست على ما يفهم في المشهور أنها تعطي

---

(١) المقدمة ، ص ١٢٠٧ - ١٢١٥

(٢) المقدمة ، ص ١٠٣٥ - ١٠٤٩

صور السموات وترتيب الأفلاك والكواكب بالحقيقة ، بل انما تعطي أن هذه الصور والهيآت للافلاك لزمت عن الحركات .)

وصفوة القول أن الفكر التجريبي مرتب التفاصيل في حياة الانسان وعلمه وليس واضع المبادىء ، فمن أين نأتي بالمبادىء ؟ أعن طريق استقراء الواقع المشخص ؟ لا بل عن طريق المعرفة الروحية .

المعرفة الروحية :

وأداتها العقل المحض الخالص (١) من الجثمانية الدماغية والحسية ، فليست له آلة جسمية ، واذا كان الحس حيوانيا والفكر انسانيا فان العقل ملائكي بالذات ، ان الملائكة عقول محضة يتحد فيهم العقل بالعاقل بالمعقول ، وهم ادراكات خالصة ، وهذه المعرفة الروحية عيانية مباشرة كالحس الا أنها أرقى منه وأعلى علوا كبيرا ، وهي تتناول الملأ الاعلى فتعرف حقيقة الكون والمعاد وتطلع على الغيب بما مضى وبما هو آت من الحوادث على مبدأ معرفة الأرقى بالادنى على طريقته الخاصة به والراقية مثله .

ولا يظفر البشر بهذه المعرفة إلا أحياناً وبشروط معينة تتبلور حول شرطين هما اضعاف تعلق النفس بالجسم عن طريق الرياضة الزهدية ، وتغذية الروح بذكر الله والعبادة واطاعة الأوامر الالهية .

ولا يتوفر الشرطان الا في قليل من الناس على رأسهم الانبياء والصحابة والأولياء من المتصوفة والصالحين وأهل الفضل ، وقد يتوفر لبعض البشر الشرط الأول دون الثاني فتضعف علاقة أنفسهم بأجسامهم من غير تغذية بذكر الله

---

(١) المقدمة . ص ٣٤٥ – ٣٩١ ثم ص ٩٧٩ – ٩٨٣ ثم ص ١٠٦٣ – ١٠٨١

وطاعته فيحصل لهم قبس غير تام من المعرفة الروحية كالكهان والعرافين والسحرة والمجانين ...

فالانبياء قوم ذوو فطرة سامية تستطيع بها نفوسهم أن تنتقل لبرهة من الأفق الانساني الى أفــق الملائكة فتنقل الاستعداد الى التحقق وتغدو ملاكاً بالفعل ، وهذا يقع عند الوحي ، ونظراً لابتعاد النفــس بالكلية عن الجسم والانسانية أثناء الوحي فانالنبي يعاني من الشدة والضغط أثناءه الشيء الكثير ، وعن هذا الوحي تصدر العقائدالدينيةوالشرائع التي تتضمن التعليمات والتوجيهات للبشر ، وكل ما يخبر به عن ماض أو حاضر أو مستقبل فانه صحيح .

ويليهم الأولياء من الصحابة وكبار السلف والمتصوفة الذين ينكشف لهم حجاب الحس عن البصيرة الداخلية فيخوضون بحر المشاهدات اللدنية والمعارف الروحية ، ولكن علوهم يظل بشرياً لأنهم لا يصبحون ملائكة مؤقتين كالأنبياء، ولم يكن سلف المتصوفة يزهدون ويتعبدون طلباً للكشف بل تقربا من الله ويأتيهم الكشف عرضاً ، واما متأخروهم فقد أصبحوا يطلبون الكشف لذاته .

والرؤيا الصادقة قد تأتي للأولياء وقد يحظى بها أي انسان ، وذلك لأن الروح الحيواني القلبي المختص بادارة الجسم ينخنس الى مركزه أثناء النوم فلايشغل النفس بالحس الظاهر ، فتتفرغ للحواس الباطنة ، وقد تهجر العالم الجسمي كله وترجع الى طبيعتها التي هي من عالم الأمر الروحي . فتنكشف لها بعض الحقائق انكشافاً قد يكون تاماً، ولذلك يأتي في صورة صريحة وقد يكون ناقصاً ولذلك تصبه في قالب خيالي يدرك معناه بعلم تعبير الرؤيا ، وأما أضغاث الأحلام فهي من ألعاب الشيطان بالخيال .

وقد يعرف الكهــــان الغيب ولكنهم يحتاجون الى الاتكاء على بعض

الرموز المادية كالطير والعظام وسجع الكلام وقد يوسوس لهم الشيطان ، وكذلك حال العرافين الذين نجد نفوسهم أدنى من نفوس اولئك فيحتاجون الى المتكأ المادي أكثر منهم .

والسحرة قوم أضعفوا علاقة النفس بالجسم من غير عبادة بل قد يستعينون بالشيطان فهم يصلون الى شيء من المعرفة المباشرة والتصرف بالموجودات ولكنهم سيئون لأنهم الى غير الله يتجهون ويستخدمون قوتهم غالباً لاغراض شريرة ، ولذلك حاربتهم الشرائع ومنها الاسلام ، فالسحر ليس ادعاء صرفاً بل هو ممكن الوجود وقد يوجد فعلاً ولكن استأهل التحريم . واذا نجح أهل الكيمياء وأهل خط الرمل وأهل أسرار الحروف فبالسحر أو بالمواجد الصوفية . وكذلك أهل سائر طرق معرفة الغائب الخفي . وتمام المعرفة يؤدي الى تمام العمل ، فالنفوس التي وصلت الى المرتبة الروحية واكتملت عقلياً تصبح متصرفة بالحوادث فضلاً عن معرفتها بها كالمعجزات للنبي والكرامات للولي وتلحق بها على شكل مشوه ومنحرف قدرات السحر الفظيعة .

ويسرف في اقامة المعرفة الروحية على انفصال النفس عن الجسم ليبطل اشتغال العقل بالعالم المحسوس حتى يعتقد أن الحجاب يرتفع عن بصيرة المشرفين على الموت كالمحتضرين والمقتولين فيعرفون الخفي ولذا كان بعض الظالمين يقتل الناس ليستمع الى ما يتكهنون به قبيل صعود نفوسهم نهائياً من هذا العالم .

ولا ينسى ابن خلدون أن يحذر من الدجل والادعاء في كل ملة وقطر وعصر يوجد أناس يتاجرون بمعلومات يزعمون أنها جاءت عن طريق الكشف

لعقول بعض الصالحين أو عن طريق التنجيم وسواه من الطرق الزائفة لعلم الغيب فليحذرهم ذو اللب والتقى .

* * *

تلك هي نظرية المعرفة المتناثرة خلال مئات الصفحات في مقدمـــة ابن خلدون ، اعترف فيها بالحس والفكر والروح ، أو ما يقابل في اصطلاحاتنا الحديثة العلم والفلسفة والدين ، وهي صيغة من صيغ التوازن بين الفلسفة والدين بعد سقوط صيغة التوازن السابقة على يد الغزالي ، ففلسفة ابن خلدون من فلسفات ما بعد الغزالي زمناً ومضموناً ولذلك جاء التوازن فيها اصالح الدين بل أصالح طرق المعرفة الصوفية الغيبية ، وليس أدل على ذلك من أنه جدّ الفلاسفة من العقل المحض الذي يعتبرونه قلعتهم وجعله من مزايا الملائكة والأنبياء والأولياء وأصحاب المعارف العيانية المباشرة الداخلية الصوفية . وقد حارت الافهام في سر الاحباط الخلدوني الذي يتمثل في زهد معاصري ابن خلدون ولاحقيه بتابعة الطريق الواقعي العلمي الذي سار عليه في علم العمران ، واكتفت أغلبيتهم بارجاع السبب الى طبيعة العصر الذي أحاط به وتلاه ، وقد أصبح في امكاننا الآن أن نضيف سبباً آخر وهو طبيعـــة الفكر الخلدوني ذاته . فمن عادة النفوس إذا ما قرأت مفكراً ومالت اليه أن تتأثر بما يعتبره هو أرقى جوانبه وأسماها ، وليس أرقى الجوانب في نظر ابن خلدون الحس أو الفكر اللذين انتجا له ولنا علـم العمران ، بل ان الروح المنسلخة عن

احساسات البدن وأقيسة الفكر هي أسمى ما يتمتع به مخلوق وما يستعين به على المعرفة الحقة . فلا نلم معاصريه ولاحقيه كثيراً ، ثم فلنلتمس له العذر ذاته فهو ابن مرحلته على كل حال ، ويظل من أينع الثمار التي انتجتها حضارتنا السابقة

مرثية للفارس الراحل

احمد يوسف داود

١ — الحصار :

كان في البدء غبار الساحة الكبرى على كل الرؤوس
وعنان الزمن الدوار ممهوراً بأختام الملوك
والذي يضحك للأرض يغنيها بموسيقى الدماء
كان في البدء غبار الساحة الكبرى . .
وكنا غرباء
تحت أقدام ملوك العصر كنا غرباء

كوكب النار على حطين لم يوقد
ولم تأت الشموس
بين حطين وبين النيل أختام الملوك
والمريدون وصهوات الجواري الأعجمية
وعلى الرمل رؤوس الغرباء
وارتمى النيل على أقدام مقياس الجزيرة
ساقطاً في نقطة الموت وفي ضوء اليخوت الملكية
تحته تختنق الأرض !

فيا نجم الصعود
من يضيء الليل في درب ملايين الرجال الفقراء ؟
أغنيات القمر الصامت لم تكبر
وقلب الريح مهجور ! عراء !!
من يعيد الزمن المنسي من حطين حتى القاهرة ؟؟
فجأة ...
تتوحه الأرض برايات الصعود الظافرة !!

٢ — الحب في تموز :

أشعلوا النار من الواحات للاسكندرية
إنه يقبل من ظل النخيل
وجدار العالم الطيني ينهار
وما في عالم الخوف القديم

فازرعوا النسرين في الشرفات
ولتسر النجوم
إنه يقبل من ظل النخيل
بشموس الزمن القادم .. بالحب المضاع
أثقلت من حملها الأرض ! فتموز يقوم
مهزه يعبر في الحارات من دار لدار
ويغنيه الصغار
وعلى باب صلاح الدين يعطي شمسه الكبرى إلى كل الجياع

. . .

قيلت الكلمة ! حتى الأغنيات ..
تحمل السيف الحجازي الرهيف
علقوها فوق جدران القصور
وعلى كل السقوف
راية الأرض محناة بألوان النزيف
قيلت الكلمة .. من كل الزوايا
يخرج الفيض الذي يخلق ! والوجه الجديد !
حاملا ترنيمة الميلاد قنديلا لأسفار الصعود
كان في البدء الدم الغاضب .. في نبض الحياة
فاشهدوا التكوين منشوراً على جرح العبور
ها هو الفارس يرقى سلم العالم
والنسرين مال

وعلى كل قلوب الفقراء :
« ها هنا باقٍ جمال !! »

٣ — رسائل من صلاح الدين :

– ١ –

« عائداً كنت من المنفى إليك
قبل أن تنحدر الشمس وتحمر السماء
لم أكن أعرف أن النار في حطين غطاها الرماد
وعلى البحر أساطيل الصليبيين !! سيفي يتململ
شق ذيل الغمد ! والموت بأعصابي
وفي عيني رقاد
وعلى الخوذة عنواني الذي ضيعه كل الملوك
إنني أترك سيفي
لك في مصر وأرحل ! »

– ٢ –

« هذه الساعة للموت على بوابة الأوطان ! من يقتلنا ؟
قبل أن تنحني الأهرام أو يبكي الصغار ؟
هذه الساعة للموت على باب السويس
قبل أن تطوقها أحذية الجند الغزاة
كلمة السر الأخيرة :

شعلة في الأغنيات
واحتراق الموت في ضوء النهار ! »

— ٣ —

« ازرع الواحات بالنخل فريم
لم تهز النخل من عشرين قرناً
طفلها ينتظر الهجرة من غدر اليهود
من ترى أغلق سيناء ؟ ومن قال : حدود ؟!!
ازرع الواحات بالنخل وفي هذا الصدام
ليكن جندك كل الكادحين
من خراسان لبحر الظلمات
فالذي غلغل في الأرض كما غلت بها شجرة توت
يعرف اليوم إذا هموا به كيف يموت »

— ٤ —

« عدت لا تبصر عيناي من النوم الطويل
غير أني أسمع النيل يغني ..
تحت أسوان !

وفي درب المقطم
سورة الفتح !! وقرآن الفلاح
وأنا أعقد للنصر الوشاح
وأنا أنتظر البعث على باب الخليل »

٤ — أغنية على أسوار العالم :
صور الكلمات في البردي !
وأدراج الحساب ..
تعلن البدء !
فمن ربان هذي السنوات ؟
طالعاً للفتح لا يحمل إلا قلبهُ
كي يغني فوق سور العالم الصامت للحب الكبير
لدم الحرية العاري باشداق الطغاة
- (« لي وجه هذه الأيام كي أهوى » (١)
فيا كل الطيور
غردي فوق شبابيك السجون
وارفعي الأعشاش فوق الثكنات !
لي وجه ، هذه الأيام ، كي أهوى فيا كل النجوم
نوري الساحات للسمار في أفريقيا
للمحبين باطراف البوادي العربية
أوقدي في الليل آلاف المشاعل
من فلسطين إلى لاباز .. من برلين للشرق العظيم
أنشدي للزمن القادم يا كل الشعوب
فاذا ما سقط العالم مجروحاً على سيف الطغاة

(١) من بول ايلوار

فسامحني وأنا أهوى ...

سأمضي لأقاتل !!)

عبر آلاف المحطات قطار الصامدين

وهو يرقى سلم العالم والنسرين مال

كلما زلزل وجه العصر أو غاب الطريق

زرعوا الأرض حراباً وسنابل

علقوا أسئلة النار على صدر المنازل

٥ ــ موعد في دمشق :

كلما ناغى حمام الشام في جنات دمر

ذكر النيل ومن بالنيل فاسترسل أكثر

تعقد الشام شريطين بأطراف الجديلة

طفلة ، بعد ! وهذا الزمن الدوار أحلام طويلة

كلما غنى حمام الصالحيه

ركنت خلف الشبابيك

وحن الورد في الدور ونور !

طفلة بعد وكل القادمين

لم يزيحوا لمحة منديلها الزاهي عن الوجه المعطر

لم تكن تعرف من سر الهوى

غير إن مر على خاطرها قد تنثر !

حبها الأول من بدء التواريخ قديم

فاذا ناغى حمام الشام في جنات دمر

ذكر النيل ومن بالنيل فارتاحت على الشباك أكثر

(— من ترى ياحلوتي تنتظرين ؟

= فارسي آت على كوكب شوق !

— ما اسمه ؟

= سري الذي أخفيه كالحبة في عمق التراب

أضلعي تلتم حوله

وانا أنتظر الموعد آلاف السنين

ربما يطلع في الواحات عملاقاً كنخلة)

كان صوت الشيخ محيي الدين يعروها كلمحات التجلي

أبداً يملكها هذا الهوى

فتناجي نفسها عنه كطفلة

« ربما يطلع في الواحات عملاقاً كنخلة !! »

٦ - ذئاب .. ذئاب .. ذئاب ..

من حزيران الى ايلول في الخط المقابل

مثلما تسقط أوراق الشجر

تتعرى أوجه أو تنحدر

وطني المغدور في ساحاته التم الذئاب

موعداً كان ! ورسم الشارة السري ناب

* * *

أيها الفارس نحن الصامدين
لم يعانق غيرنا الأرض !..

ملايين الرجال

تحت كلماتك تبني
وتغني ... وتقاتل

٧ ــ الوداع بلا مقدمات :

اشعلوا الأقمار !
من يرحل في هذي الليالي الموحشة ؟
ودماء الوطن المغدور ما جفت
ولا تلك الميادين الطوال

أشعلوا الأقمار في النيل فهذا السيد القادم من جرح القنال..
وحده يبحر في مركبة الموت الى قلب الصعيد
خلفه يسقط ليل القاهرة
فوق شلال الأناشيد وأصوات الأذان
والمحبين .. وذكرى السنوات العابرة
وحده يبحر والليلك منشور على كل الضفاف
آية الموت باسوان وطعم الماء في شلالها مر .. زعاف !
آه ياجرح القنال
يرحل الفارس في هذي الليالي الموحشة
دون أن يبسم للأطفال يرحل ؟

فلماذا ياجمال ؟؟

أمس فتحنا خوابينا وجدنا الخمر مرا

كانت الساعات في كل مكان

وحدها تنبض والقلب الذي أتعبه الحب الكبير

ذلك القلب استكان

آه ياليل الصعيد

وحده يبحر في موكبة الأموات والنيل دموع مرمرية

تحت أهداب ملايين الرجال الفقراء

زهرة اللوتس في سترته

وهو يمضي حاملاً مستقبل الحب

ورايات القبول

وطموح الأمنيات العربية

زهرة اللوتس في كل نداء

حين تبكيه الملايين بدمع مستطيل

أيها الفارس ..

نحن الصامدين

غيرنا ما عانق الأرض ... ولا حتى السنابل

فوداعاً ..

تحت كلماتك نبني

ونغني .. ونقاتل !!

الجنة المحترقة

فؤاد الخشن

ماذا يراه بموطني الأخضر
في كل ما يبدو وما يضمر
ويبث في ليل الجفاء له
شوكاً لومض جبينه يضفر

• • •

ياموطني يا غائباً يحيا في تربة الماضي متى تحضر
اسفار قدموس ... وأحرفه ..
انظل من تردادها تسكر
وتنام في كهف طحالبه
كفن لدى أهل الكرى ينشر

ليلاً ... يذرذر في الجفون على
هدب بغيم ذهوله يخدر
وتضاجع الاحلام ... تو ضعها
عرقاً على قبل الهوى ينحر
ليمصه خفاشها جرعاً
سوداً لثلج ضلوعه تنذر !

* * *

ما اغرب الأنغام يطلقها
العابثون بوجهك الاسمر
ياجنة لله ساقطة
في الأرض من فردوسه الاكبر
لو يعلم الرامي ليحرقها
تجاره الحمراء ما يخسر
لتشبثت فيها نواجذه
من خشية الحرمان واستغفر ...
ياموطني يا بابلاً كثرت
فيها لغات الالسن الهذر
ماذا يحاك لفجرنا ؟ كفن
ما ينسج العشاق أم مئزر ؟

دراسات أدبية وفنية

أدباء أمام الغربة

جورج سالم

- ١ -

أغلب الظن أن أبا تمام حين أنشد في القرن الثالث الهجري بيتيه المشهورين:

بالشام أهلي ، وبغداد الهوى وانا   بالرقمتين وبالفسطاط اخواني
وماأظن النوى ترضى بما صنعت   حتى تطوّح بي أقصى خراسان

انما كان يعبر عن شعوره وشعور الفرد العربي الذي فتحت الحضارة نفسه على العالم ، فشعر بالارتباط بالوطن العربي من مشرقه الى مغربه . أن بيتي أبي تمام هذين ليدلان دلالة حاسمة على هذا الانفتاح على العالم وعلى ارتباط الشاعر بشتى أرجاء الرقعة العربية في ذلك العصر ، ففي كل بقعة له أهل وأصدقاء ، وفي كل موطن له هوى وأصحاب ، وحيثما ولى وجهه فهو واجد اخوانا وخلانا وأقارب وصحابا ، لافرق بين القريب والصديق ، والناس اخوانه جميعاً ، وهو يكنّ لهم الود والمحبة ، يقول أبو تمام في ذلك أيضاً :

ذو الود مني وذو القربى بمنزلة   واخوتي أسوة عندي واخواني

ذلك هو شعور أبي تمام : ألفة وانسجام مع العالم وتفتّح على الناس ، وارتباط بالمجتمع الانساني بروابط متينة صميمية .

حتى اذا كان القرن الرابع الهجري ، بدأنا نسمع أصواتاً جديدة تخالف صوت أبي تمام وتناقضه ، تصدر في حكمها على الدهر والناس عن نظرة سوداء قاتمة ، وأبرز مايميز هذه الأصوات التغني بالغربة : غربة الانسان في وطنه وفي العالم ، وبعده عن الناس وشعوره بهوة كبيرة تفصله عنهم ، ويأسه من الصديق فما الذي دفع بالأديب العربي الى أن يتخذ هذه النبرة وذاك الموقف ؟وماالأسباب

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي غيرت نظرة الأديب الى العالم ؟ وكيف عبّر أدباء القرن الرابع الهجري عن هذه التجربة العميقة الحادة الآلية .

- ٢ -

ان أول صوت يطالعنا به القرن الرابع معلنا الغربة والحرمان والشكوى الأنين ، ناشرا التذمر من الناس والدهر ، متغنيا بالوحدة والانفراد، داعيا الى الرفض والتمرد هو صوت أبي الطيب المتنبي [1] . واذا كانت صورة المتنبي التي كونتها كتب الأدب في أذهـانـا هي صورة الانسان الفخور بنفسه المعجب بها ، الشامخ الى المعالي ، وصورة الشاعر المتغنى ببطولات سيف الدولة ، المرافق له في حروبه ، المشيد بانتصاراته ، المساوي بين نفسه والأمير ، فإن خلف هذه الصورة المشرقة الزاهية ، لصورة أخرى أقل اشراقا وأكثر صدقا ، وصوتا داميا يحاول أن يخفي جروحه فتأبى الا ظهورا ، وأن يدفع الواقع المرير بالوهم المضيء فلا يلبث لسانه أن يخونه ، ولا يلبث اناء الألم أن ينضح بما فيه . فما كان لهذه الاخفاقات المتتالية التي مني بها المتنبي الا أن تظهر في نتاجه وتلونه بلونها فلقد أخفق في أن يكون نبيا وان يجمع حوله الأعراب فاستحال متنبئا وألقي به في السجن ، وأخفق في بلاط سيف الدولة ، وضحى بكبريائه وأنفه ليبيعها ممن كان يباع في سوق النخاسة ، وسخر منه كافور مر السخرية ، وانتهت حياته نهاية عبثية تافهة على يد قاطع طريق . ما أشبه حياة المتنبي بحياة دون كيشوت : سلسلة من الكفاح لامعنى له ولافائدة منه ، ومعارك وهمية مخفقة بين طرفين غير متكافئين : المتنبي الأعزل الصابر :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبر ؟

---

(١) انظر : عبد الوهاب عزام : ذكرى أبي العلاء . فؤاد افرام البستاني : ابو الطيب المتنبي . وشفيق جبري : المتنبي . طه حسين : مع المتنبي .

والمجتمع الممزق حيث غالبية السيطرة للأعاجم ، والخطر محدق بتخوم الوطن ، والناس لايملكون من أمر الحكم وأمر أنفسهم قليلا او كثيرا .

الا أن الفرق بين المتنبي ودون كيشوت كبير ،فدون كيشوت لايعي مأساته ،ولا يستطيع التمييز بين عالم الوهم وعالم الحقيقة ، اما المتنبي ، فهو واع لهذه المأساة ، متألم لها ، تنبض في شعره كله نبضاً حزيناً مؤلماً يحاول جاهداً في كثير من الأحيان أن يتغلب عليها ، ولكنه في لحظات صادقة ولمحات خاطفة سريعة يضطر الى الاعتراف باخفاقه ، ويقوده هذا الاخفاق الى الشعور بالأنفة من ناحية ، والى احتقار الناس من ناحية ثانيه ، والى تعميق الشعور بالاغتراب من ناحية ثالثة .

لهذا لم يكن غريباً ان نسمع المتنبي يذم الناس ، وهو يصدر في ذلك عن معرفة عميقة بهم لطول ماعاشرهم وخبرهم ، وهو يعلن رأيه فيهم في قسوة وعنف فهم ، في رأيه ، لايرعون عهدا ولا يحفظون ودا ، وإنما حياتهم خداع ، ودينهم نفاق . يقول :

اذا ما الناس جربهم لبيب	فاني قد أكلتهم ، وذاقا
فلم أر ودهم الا خداعا	ولم أر دينهم الا نفاقا

ونسمع هذه النبرة تتكرر في شعره ، فقد قساغير مرة على الناس من أبناء مجتمعه ، فشكا صغار نفوسهم ، واضطراره الى الاتصال بهم ومصادقتهم وهم ماهم من ضعف في الأخلاق ، وجهل في العلم ، ولؤم في الطباع ، وبعد عن الشجاعة ومكارم الأخلاق ، بل نراه يتحدث عنهم مستعملا التصغير للتحقير :

أذم الى هذا الزمان أهيله	فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب وأبصرهم عم	وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى	عدوا له ما من صداقته بد

وأكثر ما كان يؤلمه فيهم – وهنا بيت القصيد – أن باستطاعتهم أن يفعلوا شيئاً ولكنهم يتقاعسون، وهم قادرون ولكنهم لا يستخدمون قدرتهم:

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

من هنا جاء زهده في الناس وانصرافه عنهم يائساً منهم شاكاً في سلوكهم واخلاصهم وصداقتهم.

فلما صار ود الناس خباً جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

ويبلغ به اليأس من الناس مبلغاً كبيراً فيؤثر البهائم عليهم: «فالعيس أعقل من قوم رأيتهم ...».

وفي اعتقادي أن باعث تينك الكراهية والحقد على الناس لدى المتنبي هو تخلفهم وبعدهم عن المعالي، وبعبارة أخرى، قنوعهم بحالهم وعجزهم عن الثورة. ان نفس المتنبي المتلئة نقمة لاتجد لها صدى بين الناس.

ولكن المتنبي لم يدرك الأسباب البعيدة لهذا الضعف الذي تسرب الى الناس وتفشى فيهم، لذلك راح يحمل الدهر وزر ذلك، وما أكثر ما نستمع اليه وهو يندد بالدهر في موقفه منه وفي تحويل الناس الى ماهم عليه، وما أكثر ما شكا المتنبي من الدهر، والدهر بهذا المعنى هو الظرف التاريخي الذي عاش فيه الشاعر بما يشتمل عليه من مقومات سياسية واجتماعية واقتصادية:

من خص بالذم الفراق فانني من لا يرى في الدهر شيئاً يحمد

ذلك بأنه كان يطالب الدهر والأيام بما يعجز الدهر والأيام، في ذاك الظرف، أن تحققاه له، وفي هذا يتجلى سر التمزق الذي كان يعانيه:

أود من الأيام ما لا توده وأشكو اليها بيننا وهي جنده

ويرد المتنبي غير مرة شكواه من اخفاق الأيام في تحقيق رغائبه يقول مثلاً:

قد ذقت شدة أيامي ولذتها فما حصلت على صاب ولا عسل

لقد طلب الكثير فلم يحصل على شيء ، بل منحته الدنيا المصائب والآلام :

أظمتني الدنيا فلما جئتها ... مستسقياً مطرت علي مصائبا

ومن هنا فالخير كل الخير في الابتعاد عن الدنيا فليس يصل الانسان فيها الى مبتغاه ، ومن الخير كل الخير أن يروّي الانسان رمحه بدماء الناس ، فلا خير فيهم يرتجى :

فمالي وللدنيا طلابي نجومها ... ومسعاي منها في شدوق الأراقم
من الحلم أن تستعمل الجهل دونها ... اذا اتسعت في الحلم طرق المظالم
ومن عرف الأيام معرفتي بها ... وبالناس ، روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم اذا ظفروا بـه ... ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

هنا يصل اليأس بالمتنبي الى ذروته ، اذ يودّع الحلم لأنه طريق واسعة للمظالم ، ويجوز على الناس لأنهم لن يرحموه اذا ماظفروا به .

واذا كان قد فات المتنبي أن يدرك طبيعة الظرف التاريخي الذي جعل الأمور تسوء في المجتمع العربي ، فلم يفته أن يلمس جانباً من جوانب هذا الوضع وأن يضع أصبعه على سبب من أسباب التخلف والضعف ونعني به سيطرة الأعاجم على الوطن العربي .

ففي هذه السيطرة على الحكم يكمن الفساد الحق ، فالعربي يجب أن يحكم نفسه بنفسه ، وحين يستولي الأعاجم على الحكم فمن الطبيعي أن تسوء الأمور ! على هذا النحو يصوّر المتنبي طرفاً من مأساة عصره ، وعلى هذا النحو نبرر تنديده بالناس والدهر ؛ فلقد تحوّل الشعب الى قطيع يساق ورعية

ترعى ، وأسوأ ما في ذلك أن راعيها أعجمي جلف ليس له من الفضائل حظ كبير أو قليل :

وإنما الناس بالملوك وما	تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب	ولا عهود لهم ولا ذمم
في كل أرض وطئتها أمم	ترعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلبسه	وكان يبرى بظفره القلم !

من هنا ، فيما نعتقد ، جاء شعور المتنبي بالغربة والحرمان ، وتغنيه الدائم بهذا الشعور . وهو يصرح به مرة ويحاول أن يكتمه مرة أخرى ، الا أنه يظهر رغم ذلك كله في تضاعيف شعره ، فتطالعنا به كثير من أبياته التي نظمها في شتى مراحل حياته . وهذا الشعور يزداد لديه يوماً بعد يوم حتى يصل به حد اليأس والرغبة في الموت .

وهكذا فإن مواقف المتنبي التي عرضنا لها من الناس والدهر والحكام تنعكس وتتضافر لمضاعفة شعوره بالغربة ، فهو يرى نفسه من معدن غير معدن الناس ، انه كالذهب بين التراب ، وتلك هي المأساة ، يقول في تصوير ذلك معبراً عن غربته وخلو الأرض من الأصدقاء وسوء الناس وانشغالهم بالطعام والمآكل وحدها ، وميل الدنيا الى الطعام من البشر بنبرة أليمة قاسية خالية من أية رقة أو رهافة :

فؤاد ما تسليه المدام	وعمر مثل ما تهب اللئام
ودهر ناسه ناس صغار	وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم	ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير أنهم ملوك	مفتحة عيونهم نيام
بأجسام يحر القتل فيها	وما أقرانها الا الطعام

خليلك أنت لا من قلت خلي ... وان كثر التجمل والكلام
وشبه الشيء منجذب اليه ... وأشبهنا بدنيا الطغام

ما أبعد الشقة بين هذه النظرة الى الناس وبين نظرة أبي تمام تلك !

والمتنبي يشعر أنه نفيس بين أقرانه ، والنفيس غريب حيثما وجد ، غريب بين أهله وغريب في وطنه :

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ... ان النفيس غريب حيثما كانا

ويمضي الى أبعد من ذلك فيرى شبهاً بينه وبين الأنبياء من حيث عدم تجاوب المجتمع معهم ، وعدم تقبّل رسالاتهم ، الا أن الأنبياء صنعوا أشياء كثيرة وغيروا المجتمع ، أما المتنبي فقد عجز عن القيام بأي شيء :

ما مقامي بأرض نخلة الا ... كمقام المسيح بين اليهود
أبدا أقطع البلاد ونجمي ... في نحوس ، وهمتي في سعود
أنا في أمة تداركها الله ... غريب ، كصالح في ثمود

لذلك يشعر بالألم والعذاب ، ولذلك يعمد الى التغني بألمه تغنياً مراً حاداً :

لم يترك الدهر من قلبي ومن كبدي ... شيئاً تتيمه عين ولا جيد
يا ساقييّ أخمر في كؤوسكما ... أم في كؤوسكما هم وتسهيد
أصخرة أنا ؟ مالي لا تحركني ... هذي المدام ولا هذي الأغاريد
ماذا لقيت من الدنيا ، وأعجبه ... أني بما أنا شاك منه محسود

أرأيت الى المرارة تقطر من هذه الأبيات ، فلقد سلبه الدهر كل شيء ، وهذه الخمرة التي يشربها الناس لينسوا همومهم بها ، تضاعف من أحزانه . لقد تحجر احساسه بالحياة فلم يبق شيء يحركه ويؤثر فيه ، فيعلن في مرارة أنه لم يلق من الدنيا أي شيء ، وأعجب مافي ذلك أن هناك من يحسده على الحال.

التي هو فيها ! وإذا كان (النفيس غريباً حيثما كانا) فإن النفيس أيضاً أكثر الناس عرضة لسهام الدهر، وكلما ازداد احساس الانسان ازداد شقاؤه وتعاظم ألمه وبعدت الشقة بينه وبين الآخرين، ورأى فيهم النقيض الكامل لنفسه وشخصيته :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن — يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
وانما نحن في جيـل سواسية — شر على الحر من سقم على بدن
لا أقتري بـلداً الا على غرر — ولا أمر بخلق غـير مضطغن
ولا أعاشر من أملاكهم أحداً — الا أحق بضرب الرأس من وثن

ومن الطبيعي بعد هذا أن ترى المتنبي غير متعلق بالحياة، آنفاً منها زاهداً فيها فما من شيء يربطه بها . ولقد عبّر عن هذه التجربة في قصيدة من أعمق قصائده وأجملها، أنشدها في مصر، يقول فيها :

بم التعلل، لا أهل ولا وطن — ولا نديم ولا كأس ولا سكن
أريد من زمني ذا أن يبلغني — ما ليس يبلغه في نفسه الزمن

بهذه الجمل المتوترة المتقطعة يعلن المتنبي عن غربته المطلقة، فما من شيء يربطه بالعالم، فليس له أهل، وليس له وطن، وليس له صديق يؤنسه ولا منزل يأوي اليه . ولست أعرف بين قصائد المتنبي قصيدة أعمق تعبيراً وأصدق تجربة من هذه القصيدة، ومن هنا يمكن أن نفهم اشتهاء المتنبي الموت والفناء، فالموت وحده هو الذي ينقذه مما هو فيه، وسنرى هذا الموضوع يأخذ أبعاداً أشد عمقاً لدى المعري . يقول المتنبي :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً — وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لـما تمنيت أن ترى — صديقاً فأعيا، أو عدواً مداجيا

لاخلاص اذاً إلا بالموت، لقد صار الموت أمنية هذا الشاعر الغريب، وهو وحده سبيل الخلاص من المجتمع برمته ومن الغربة القاتلة الممضة فيه !

هناك صوت ثان يطالعنا به القرن الرابع الهجري أشد عمقاً وأبعد نفاذا وأكثر تأثيراً في القلب والنفس ، ونعني به صوت المعري[1] . والمعروف أن أبا العلاء كان يحب المتنبي أعمق الحب ، ويعجب به اعجاباً بالغاً ، وأن المتنبي فتح أمام أبي العلاء بعض آفاق التشاؤم فتوسّع فيها هذا توسعاً كبيراً وأخذت لديه كل أبعادها الفلسفية ورنينها الشعري الانساني . ونحن نعلم أن أبا العلاء قد فرض على نفسه العزلة وأقام في منزله حوالي أربعين عاماً لا يبرحه ، وأنه في هذه الفترة أملى ديوانه الكبير اللزوميـــات وألف رسالة الغفران وأنتج الفصول والغايات وغيرها من الرسائل والمؤلفات ، ولكن يجب أن نتذكر أن أبا العلاء في مطلع حياته ، قبل أن يلتزم عزلته تلك ، قد طوّف في بعض البلاد والمدن العربية وأنه ذهب الى بغداد فحضر مجالس الأدباء ، وأراد ، شأن شعراء عصره وشعراء العصور السابقة ، أن يلمع نجمه الأدبي هناك ، إلا انه لم يوفق في ذلك كله ، فقد لاقى صنوفاً من الأذى في بغداد ، ووجد سوق الشعر بائرة والمجتمع منهاراً والفوز كل الفوز للمنافقين والانتهازيين ، فما كان منه الا أن انكفأ على نفسه واتخـــذ موقفاً من الحياة صارماً ، رغم تعلقه بها ، فالتزم الوحدة وتجنب الزواج وانجاب الأولاد ، وحرّم على نفسه أكل لحوم الحيوان ومنتجاته ، وانصرف انصرافاً تاماً الى التعبير عن نظرته الى العالم والوجود ، تعبيراً قوامه التشاؤم والتوق الى الموت والفناء ، دفعه الى ذلك شعور مرهف وحساسية مفرطة وإباء حاد ، فاق في ذلك كله استاذه المتنبي . ولسنا نأخذ بالتفسير الساذج الذي يفسر به بعض الدارسين

(١) تراجع دراسات طه حسين وبنت الشاطىء وزكي المحاسني عن المعري .

تشاؤم المعري وموقفه من الحياة والمجتمع بالآفة التي اصيب بها في مطلع حياته فحرمته النور وفرضت عليه عالم الظلمات . فلقد كان بشار بن برد الذي عاش في القرن الثاني مثلا أعمى ، ولكنه لم يكن متشائماً ، بل كان يقبل على الحياة وعلى ملذاتها بنهم عجيب ، بل نحن نميل الى تفسير تشاؤمه هذا بعاملين اثنين : اولهما نفسيته الحساسة المرهفة باباتها وتواضعها ، وثانيهما الانهيار الذي بدأ يتسرب الى المجتمع العربي في القرن الرابع ، فدفع الأديب الحق الى الانسلاخ عن المجتمع والعيش منفرداً غريباً وحيداً . لقد كان المعري اكثر صدقاً مع نفسه من المتنبي وأشد اخلاصاً لها ، وأبعد وعياً بالمأساة الانسانية كلها ، مأساة الوجود ، التي طرحت نفسها عليه ، ووضعته وجهاً لوجه أمام لغز الحياة والوضع البشري .

من هنا جاء حديث المعري عن الغربة ، ومن هنا جاء تغنيه بالموت ، وانا لنلمس في شعره كثيراً من الاشارات المتفرقة الى الظروف الخارجية الفاسدة التي كانت تطبع عصره بطابعها .

ولنبدأ بتحليل غربة المعري . ان المعري ليشعر بأنه ذو فضل وعلم وأنه يمتاز على أقرانه ونظرائه من الأدباء والشعراء وعلى العلماء والفقهاء وقد أظهر احتكاكه بطبقة المثقفين ببغداد ذلك ، ومع هذا كله فهو يرى أن الممتازين غرباء، ربما بسبب امتيازهم وتفوقهم ، فهو يفتتح لزومياته بهذا البيت الذي يلخص غربته خير تلخيص :

أولو الفضل في أوطانهم غرباء ... تشذ وتنأى عنهم القرباء

ويرى المعري البون الشاسع الذي يفصله عن الناس ويفصل الناس عنه فيقول في الفصول والغايات مخاطباً نفسه : (ألا تخبرين من خليلك ! فليس بينك وبين أحد خلال) . ويكرر هذه الفكرة في والفصول، وهو أول كتاب أملاه بعد

رجوعه من بغداد : « أي صديق لي وأي نسيب ، اني في الوطن لغريب ، من أجالس وجليس الصديق قليل » . . . ولا شك أن هذه الجملة تحمل كل ألم المعري من الغربة ، غربة الانسان في وطنه وغربته عن الناس ، والى هـذا يشير في احدى لزومياته قائلاً :

قد كثرت في الأرض جهالنا والعاقل الحازم فينا غريب

والمعري الغريب في حياته سيكون غريباً في مماته كذلك ، وهو يصور ذلك بأسى وحزن قائلين :

متى ما يأتني أجلي بأرضي فناد على الجنازة للغريب

هذه الغربة تقودنا الى الحديث عن غربة اخرى كان المعري يتمزّق منها ، تلك هي غربة الجسد عن الروح وغربة الروح عن الجسد ، يقول في «الفصول» : (يانفس تحذرين ولا تعتذرين ، واذا عرض الطمع لما تذرين ، انك لأهل للجهل ، والحلم ليس لك بحلم ، أنت شر من جسدك ، وجسدك شر منك ، لو قدرت لانتفيت عنك أبلغ انتفاء) .

ويضيق المعري نتيجة لذلك بالحياة فيصرخ : « ما أضيق عليّ دنياي ! » ويؤلمه هذا الاحساس المفرط فيتمنى لو كان محروماً منه « ليتني كنت حجراً ، لاأمسي حذرا وأصبح وجرا » (١) . . . ولانعدم من بعد أن نرى المعري يفتقد الأصدقاء فلا يجدهم : « الطريق لاحب فأين الصاحب ؟ (٢) » لهذا كانت العزلة أمراً ضرورياً ، وكان المعري مرغماً عليها : « انما أنا حي كالميت او ميت كالحي » وما اعتزلت الا بعد أن جددت وهزلت فوجدتني لا أنفذ في جد ولا هزل (٣) » .

(١) الوجر : الخائف .
(٢) الفصول والغايات ص : ٢٩٦ .
(٣) الفصول والغايات ص : ٢٩٨ .

ويسهب المعري على هذا النحو في الحديث عن انعدام الأصدقاء وضرورة الاعتصام بالوحدة فيقول :

بعدي عن الناس بره من سقامهم ... وقربهم للحجى والدين أدواء

ويقول أيضاً :

يموت المرء ليس لـه صفي ... وقبـل اليوم عز الأصفياء

ويحاول المعري أن يقنع نفسه بهذه الوحدة التي دفع اليها دفعاً وحاول أن يقبلها فيقول :

توحد فان الله ربك واحـد ... ولا ترغبن في عشرة الرؤساء
يقل الأذى والعيب في ساحة الفتى ... وان هو أكدى ، قـلة الجلساء

فاذا كنا ندين بالوحدانية فلماذا لا نلتزم ذلك في حياتنا ؟

بوحـدانية العـلاّم دينا ... فدرني أقطع الأيام وحدي

وهذه الوحدة ليست مؤلمة مضة كما يتوهم النـاس ، بل ان فيها الخلاص والنجاة . أرأيت الى نجم السماء سهيل انه متفرد في الفضاء لا يشكو انفراده ووحدته :

لا توحش الوحدة أصحابها ... ان سهيلا وحـده فارد

وما رأيناه عند المتنبي من سوء النظرة الى الناس وقرفهم بالعيش يتخذ لدى المعري صورة اقصى فيقول معللا زهده في حضور صلاة الجمع تأففاً من الناس :

يقولون هلا تشهد الجمع التي ... رجونا بها عفواً من الله أو قربا

وكما كانت الغربة لدى المتنبي مردها الاخفاق ، فإن اخفاق المعري يدفعه الى هذه الوحدة يقول :

لو اتبعوني ، ويحم ، لهديتهم ... الى الحق ، أو نهج لذاك مقارب
فقـد عشت حتى ملني وملته ... زماني ، وناجتني عيون التجارب
فما للفتى الا انفراد ووحـدة ... اذا هو لم يرزق بـلوغ المآرب

والفارق بينهما أن المتنبي ظـــل يكابر ويكابر حتى آخر أيامه ، وبعوض اخفاقه بالفخر والتحدي ، بينا أدرك المعري عبث المحاولة وعبث الحياة فانزوى بل تمنى لو كان يعيش في الصحراء أو على رأس جبل بعيداً عن الناس كلهم :

فليتني عشت ببداوية ... حرباؤها في عوده يشبح (١)
يصدى بها الركب وأعلامها ... كأنها في آلها تسبح
أو بت في صبوة مستوطناً ... أمسي مع الأغفار أصبح

كانت هناك غربة في حياة المعري إذاً ، وكانت ثمة وحدة لابدّ منها ، واذ رحنا نلتمس سبب ذلك وجدناه يعود الى امور عدة ، منها فساد الناس وسوءهم .

يقول المعري في الفصول : « طفت في الآفاق ، فاذا الدنيا نفاق ، وملت من مداراة العالم بما يضمر غيره الفؤاد ، فاخترت الوحدة على جليس السوء » . ان الوحدة هنا تتخذ موقفاً أخلاقياً وادانة للمجتمع الذي عمه الفساد ، فحينما اتجه المعري وجد الفساد والخداع والنفاق : في عالم الأدب، وعالم السياسة، وعالم الدين ، وفي العلائق الانسانية كلها. وبلخص المعري ذلك كله تلخيصاً جامعاً في الفصول والغايات : « إذا اصبح النصح ثقيلا ، والمساجد قالاً وقيلا ، وصارت الإمارة غلاباً ، والتجارة خلاباً ، فالبيت المحفور ، ومجاورة الغور [٢] خير لك من مشيّدات القصور ، والفقير أربح من ذي التاج [٣] » .

بهذه النظرة الصارمة القاسية كان المعري ينظر الى مجتمعه ، فكل

---

(١) يشبح : يمد يديه من غصن الى آخر . الداوية : الأرض القفر – الأغفار جمع غفر : شاة الجبل .

(٢) الغور : الظباء .

(٣) الفصول والغايات : ص ٢٥٥ .

ماحوله فساد في فساد :

عصا في يد الأعمى يروم بها الهدى ... أبر له من كل خدن وصاحب
فأوسع بني حواء هجراً فانهم ... يسيرون في نهج من الغدر لا حب

والى جانب فساد الناس ، هناك فساد الساسة والسياسة ، ولسنا نعرف في تاريخ أدبنا من تحدث عن الساسة وفسادهم في قسوة وعنف كما تحدث عنهم المعري . يقول مثلاً :

مل المقام ، فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعيةواستجازوا كيدها ... فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

فالظلم هو الذي يسيّر أمور البلاد في عصره ، والحكام – وهم خدم المواطنين – يأمرون بغير صلاحهم ، وهكذا يضيع حق الناس . وسبب هذا الظلم كامن في ابتعاد الساسة عن العقل والمنطق واتباعهم الهوى فيما يقدرون ويفعلون :

يسوسون الأمور بغير عقل ... فينفذ أمرهم ويقال : ساسه
فأف من الحياة وأف مني ... ومن زمن رئاسته خساسه

وليس هذا الوضع خاصاً ، في عصر أبي العلاء ، بقطر عربي معين وانما هو انحدار في كل الاقطار العربية من اقصاها الى اقصاها .

كل الديار ذميم لا مقام به ... وان حللت ديار الوبل والرهم
ان الحجاز عن الخيرات محتجز ... وما تهامة الا معدن التهم
والشام شؤم وليس اليمن في يمن ... ويثرب الآن تثريب على الفهم

إن في ذلك كله مايدفع الانسان المرهف الحس الى البرم بالحياة ، فينادي المعري معبراً عن ملله من الحياة ورغبته في تركها يقول : « مولاي قد سئمت هذه الدار ، وأنا فيها بخير ، فانقلني باختيارك الى حيث تشاء » . وهو اذامات كها

فلن يترك فيها شيئاً يربطه بها ، لازوجة ولا أولاد ، وفيم ينجب الانسان الاولاد اذا كانوا سيصبحون عرضة الظلم والشقاء : « أظعن عن الدنيـــا وما اترك فيها عرساً تأيّم ولا ولد يتيم ، وذلك الأمر الأحزم ، انما يترك الانسان ولده للشقاء، اما ضعيفاً يُظلم واما قوياً يهتضم ، وكلا الرجلين لا يسلم » .(١)

كل ذلك وضع المعري أمام مشكلة معنى الحياة ، وانتهى الى فراغها من المعنى ، والى عبثية قاتلة . لنستمع اليه يصور عبث الحياة على شكل صورة رمزية ، فهو يتصوّر نفسه انسان ظمآن أبداً ، لا يجد الماء الذي يروي غليله ، فاذا ما اقترب من بئر وجد الناس مزدحمين حولها ، فلا يتاح له أن يشرب منها ، واذا ما انتقل الى بئر ثانية لم يجد مايستقي به ، حتى اذا عثر آخر الأمر على رجل يمتح الماء من البئر ، شكا اليه الظمأ : فوعده الرجل أن يسقيه ، ولكن ما ان يقترب الدلو منها ويصبح الماء قيد أنملة منها حتى تنقطع عرى الدلو ويتحطم الحبل . تلك هي صورة الحياة البشرية : جهود ضائعة وسبل مغلقة . « انما أنا كرجل بلي بالصدى لايجد ورداً ولا مورداً ، فهو ظمآن أبداً ، ان ورد غروفاً وجده مضفوفاً ، وان صادف نزوعاً أعوزته الآلة والمعين . بينا هو كذلك هجم على رجل ينزع بغرب ، فشكا اليه فرط الكرب ، فقال : ربّك ان شاء الله قريب ، فأعني على انتزاع المروية ، فلما كان الغرب بحيث يريان ، غدرت الوذم وخان العناج » .(١)

انها صورة موجزة ولكنها دقيقة التعبير عن الوضع البشري كله من خلال رؤية المعري للوجود : وهذا مادفع الشاعر الى التغني بالموت باعتباره المنقــذ الوحيد للانسان من وضعه البشري :

---

(١) الفصول والغايات : ص ٢٧١ .

(١) الفصول والغايات ص : ٣١٦ .

لو كنت رائد قوم ظاعنين الى … دنياك هـذي ، لما الفيت كذابا
لقلت : تلك بلاد ، بنتها سقم … وماؤها العذب سم للفتى ذابا
هي العذاب ، فجدوا في ترحلكم … الى سواها ، وخلوا الدارا عذابا

ويقول أيضاً متشوقاً الى الموت مصوراً بؤسه في هذه الدنيا :

رب متى أرحل عن هذه الدنيـا فاني قد أطلت المقـام
لم أدر ما نجمي ولكنه … في النحس مذ كان جرى واستقام
فلا صديق يترجى يدي … ولا عـدوي يتخشى انتقـام
والعيش سقم للفتى منصب … والموت يـأتي بشفاء السقام

بهذا النغم الحزين الهادىء يعبر المعري عن مأساته الذاتية ومأساة العربي في عصره .

— ٤ —

أما آخر أدبائنا الثلاثة فأبو حيان التوحيدي (١) . وحيـاة التوحيدي كحياة صاحبيه ، سلسلة من الاخفاق الشاق الممض ، بل قد تكون حياته أقسى وأشق . فقد ولد لأبوين فقيرين ، وقد أقبل على تحصيل العلم بكل ما أوتي من جهد حتى بلغ مرحلة الفحول من الكتاب واعتبر واحداً من أعلام النثر في تاريخ الأدب العربي . وحاول أن يتصل بالوزراء المشهورين في عصره ، فاتصل بالوزير أبي محمد الحسن بن محمد المهلبي ، ولكن المهلبي غضب على التوحيدي ونقم عليه ونفاه من بغداد ، ويفسر مؤرخو الأدب هذا التصرف ببعد المهلبي عن روح التسامح . ورحل التوحيدي قاصداً ابن العميد وكان كذلك من المهتمين بالآداب والعلوم وأديباً معروفا بين كتاب عصره ، ولكن التوحيدي لم يجد لديه مايرد عنه غائلة

---

(١) تراجع دراسات : عبد الرزاق محي الدين واحسان عباس وزكريا ابراهيم ومحمد الحدقي وابراهيم الكيلاني عن التوحيدي .

الفقر ، وربما آلم ابن العميد اعتداد التوحيدي بنفسه ، وقد عرف عن ابن العميد وأبهة الفرس وعظمة السلطان . واتصل بعد ذلك بالصاحب بن عباد وكان هذا كاتباً يتمتع بشهرة عريضة في ارجاء الدولة العربية الاسلامية وترقت به الحال حتى وزر لمؤيد الدولة أبي منصور بدين . وسمع التوحيدي بكرمه فقصده كما يقول في كتابه الامتاع والمؤانسة : «بأمل فسيح وصدر رحيب » فما فاز منه بطائل ، فعاد عاتباً على ابن عباد ، مغيظاً منه ، مقروح الكبد لما ناله من الحرمان المر ، والصدّ القبيح واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ... والمعاملة السيئة .

وكان أكثر ما يحز في نفس التوحيدي أنه وقد بلغ ما بلغ من المقدرة الأدبية يضطر الى كسب معيشته بالوراقة ونسخ الكتب للمثقفين بما لا يقيم أوده .

هنا أيضاً نجد أنفسنا أمام أديب مني بسلسلة من الاخفاق ، فلم يقدره مجتمعه ، ولم يسم الى المكانة التي يستحقها فعانى مرارة الحرمان ، وأحس بغربة قاتلة في مجتمعه وعبر عن هذه الغربة في عدد من آثاره . فهو يصوّر مثلاً بأسلوبه الرائع ، في كتاب الصداقة والصديق ، وضعه الاجتماعي وغربتــه فيقول : « ... لأني فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرفق ومشفق ، والله ! لربما صليت في الجامع فلا أرى الى جنبي من يصلي معي ، فإن اتفق فبقّال أو عصّار أو ندّاف أو قصّاب ومن إذا وقف الى جانبي (أسدرني بصنانه) وأسكرني بنتنه ، فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، مجتنفاً على الحيرة ، محتملاً الأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقعاً لما لا بد من حلوله ، فشمس العمر على شفا ،

وماء الحياة على نضوب ، ونجم العيش الى أفول ، وظل التلبّث الى قلوص »[1].

بهذه الجمل اللاهثة المفعمة بالألم يعبر التوحيدي عن تجربة الغربة التي عاناها في مجتمعه ، فهو غريب الحال واللفظ والنحلة والخلق ، لا أنيس له سوى الوحشة بتوقع الموت الذي أمسى قريباً منه .

وما رسالته الكبيرة في ذم الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد الا تعبير عن شعوره بالأذى والجفاء اللذين قابله بهما من كانا يعتبران راعيين للأدب والأدباء والعلم والعلماء ، فقد ضيّقا عليه سبل العيش ، واحتقراه . يقول التوحيدي في احدى رسائله : « وفي سنة سبعين وثلاثمئة فارقت بابه راجعاً الى مدينة السلام ، ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهما واحداً ، ولا ما قيمته درهم واحد ، احمل هذا على ما أردت . ولما نال مني هذا الحرمان الذي قصدني به ، وأحفظني عليه ، وجعلني من جميع غاشيته فرداً ، أخذت أملي في ذلك بصدق القول عنه وسوء الثناء عليه ، والبادىء أظلم » .

يحلل الدكتور احسان عباس موقف التوحيدي من عصره تحليلا صائبا حين يقول : « ان في دراسة أبي حيان تصويراً لمأساة الفرد الذي يقف وقفة شاهرة في وجه التيار ، دون أن يغرق ، ودون أن يحس به التيار المتدفق ، فهو كالشجر المتفردة لا ينحني للسيل ولكنه لا يستطيع صده ، وليست مأساته الحقيقية في فقره وخموله ، وانما هي في وقفته وحده يصارع بروح متمردة ، وهو يبدو للناظر ضعيفاً خائرا ، ينزع الى الاستغاثة ، ويتلذذ بالشكوى ، كأن لم يعرف معنى القوة في نفسيته . ولذلك نستطيع ان نقول : انه يمثل وعياً اجتماعياً غير ناضج ، وعياً غير مبني على فلسفة متكاملة في الحياة، فهو هدف لكل بادرة طارئة ، وعرضة

(١) الصداقة والصديق ص ٧ — ٨ بتحقيق الدكتور ابراهيم كيلاني .

للمتناقضات تصيبه سهامها ، فيتلقاها في كل جانب ، ويحاول أن يشق لنفسه من بينها طريقاً واضح المعالم والسمات ، ولذلك أخفق ، بل كانت حياته تاريخاً لخيبة متجددة متمددة ، لأنها حياة رجل مغمور عاش صاخباً متذمراً حاقداً ناقماً والناس من حوله لا يعبؤون به . . . » (١)

ألسنا نجد بعد هذا شبهاً كبيراً بينه وبين كل من المتنبي والمعري ؟ واذا كان المتنبي قد آثر رغم غربته أن يظل يكافح حتى موته ، وكان المعري قد اعتزل الناس وفرض الوحدة على نفسه ايماناً منه بلا معنى الحياة ، فماذا عسى ان يفعل التوحيدي ازاء غربته ؟ لقد التجأ التوحيدي الى نوع من الهرب الصوفي ، وأضاف الى ذلك موقفاً من أعنف المواقف التي عرفها أي أديب وذلك حين أقدم على حرق كتبه والقائها في الماء بعد أن عانى ما عانى من تأليفها فلم تحمل اليه إلا الشقاء والعذاب ، يقول في رسالة بعث بها الى احد اصدقائه ، وكان قد لامه على احراقه كتبه ، وقد حفظها لنا ياقوت في معجم الأدباء :

« . . . وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع ، على ظمأ برّح بي اليه وشكرت الله على النعمة به عليّ ، وسألته المزيد من أمثاله الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق اليّ والصبابة نحوي مانال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نمي اليك فيما كان مني من احراق كتبي النفيسة بالنار وغسلها بالماء ، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك ، كأنك لم تقرأ قوله جلّ وعزّ : « كل شيء هالك الا وجهه، له الحكم واليه ترجعون » . وكأنك لم تعلم انه لاثبات لشيء من الدنيا وان كان شريف الجوهر ، كريم العنصر مادام مقلّباً بين الليل والنهار ، معروضاً على أحداث الدهر وتعاود الأيام ، ثم أني أقول : ان كان

(١) احسان عباس : أبوحيان التوحيدي ص ١٠

– ابدك الله – قد نقب خفك ما سمعت فقد أدمى أظلي (٢) مافعلت فليهن عليك ذلك ...

ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه ، اني فقدت ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ورئيساً منيباً ، فشقّ عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضي اذا نظروا فيها ، ويشمتون بسهوي وغلطي اذا تصفّحوها ، ويتراؤون نقصي وعيبي من أجلها ، فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن وتقرّع جماعتهم بهذا العيب ؟ فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات . وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صحّ لي من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من انسان منهم حفاظ ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة الى أكل الخضر في الصحراء ، والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، والى بيع الدين والمروءة والى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، والى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم .

ثم يصرخ مع أبي سليمان الداراني الذي جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار : « والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك » (١) .

بهذه الرسالة المفعمة بالألم واليأس ينهي ابوحيان حياته الأدبية ويتجه الى العزلة والتصوف . ولعل كتاب « الاشارات الالهية » ، وهو آخر كتبه يعكس ، هذا التصوف والانكفاء على الذات ، وهو اكثر كتبه دلالة على غربته التي بلغ في تحليلها حداً مدهشاً في الدقة والروعة والتأثير . يقول مثلاً في

(١) باطن الأصبع .

(٢) الاشارات الالهية بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي ٧٨ – ٨٢ .

احدى رسائل « الاشارات الالهية » في تصوير حالة الغريب مانقتطف منه المقاطع التالية :

« فأين أنت عن قريب قد طالت غربته في وطنه وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه ؟! أن نطق نطق حزنان منقطعاً ، وان سكت سكت حيران مرتدعاً .

« وقد قيل : الغريب من جفاه الحبيب ، وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حاباه الشريب ، بل الغريب من نودي من قريب ، بل الغريب من هو في غربته غريب !..

هذا غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه ، ولم يتزعزع عن مهب أنفاسه. وأغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه ، وابعد البعداء من كان بعيداً في محل قربه !

الغريب من اذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه لم يدوروا حوله ، الغريب من اذا تنفس أحرقه الأسى والأسف ، وإن كتم أكمده الحزن واللهف.

« اللهم إنا قد اصبحنا غرباء بين خلقك فآنسنا في فنائك » ! (١)

وأهم ما يلفت النظر في هذه الرسالة حديث التوحيدي عن غربة الانسان في وطنه وهي اقسى انواع الغربة ، بل يمضي التوحيدي الى فكرة اكثر عمقاً ورهافة حين يصور الغريب وقد صارت غربته غريبة عنه ؛ وذلك لأنه ارتفع فوق معنى الغربة عن الوطن الى معنى الغربة عن الغربة بعد أن صارت الغربة نفسها

(١) الاشارات الالهية بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي ص ٧٨ — ٨٢ .

وطناً له » على حد تعبير الدكتور عبد الرحمن بدوي . ولا عجب بعد ذلك أن يتمنى التوحيدي الموت والفناء .

- ٥ -

وبعد فقد عرضت في هـــذه الدراسة الموجزة لتجربة الغربة التي عاناها ثلاثة من كبار أدباء العربية ظهروا كلهم في القرن الرابع الهجري وعانوا هـذه التجربة الروحية الحادة . ورب قائل يقول : ألم يعرف القرن الرابع غير هؤلاء الادباء الثلاثة ؟ ولماذا لم يشعر غيرهم من الادباء بهذه التجربة أو يعبروا عنها ؟ بلى لقد ظهر كثير من الادباء والكتاب في هذا القرن ، ولكن ينبغي أن نشير أول الأمر الى أن أدباءنا الثلاثة كانوا كلهم عرباً أما الادباء الآخرون فكانوا من الفرس : ابن العميد ، الصاحب بن عباد ، الخوارزمي ، بديع الزمان الهمذاني ، مهيار الديلمي الذي تغنى بالفرس تغنياً ينضح بالشعوبية الحاقـدة . واذا كانت القومية الفارسية قد أخذت تتشكل بقوة ، وكانت اللغة الفارسية من مظاهر تلك اليقظة القومية — كما يقول الدكتور احسان عباس — أدركنا لماذا كان الادباء الذين ينحدرون من أصل فارسي يشعرون بالقوة والمنعة في القرن الرابع وتغدق عليهم الأموال ويقربهم اليهم الحكام الفرس .

ولقد أتيح لنا خلال البحث أن نجد لدى أدبائنا الثلاثة ثورة ونقمة على الحكام الذين عاصروهم فاشتركوا جميعاً في ذم الحكام والوضع السياسي المتمثل في حكم البويهيين .

الى جانب هذا الوضع السياسي هناك الوضع الاجتماعي السيء المتخلف

القائم على الضرائب الكثيرة والاقطاعية . يقول الدكتور عبد العزيز الدوري (١) :

« وحكم البويهيون كأجانب لايهمهم شؤون الأهلين ، ولا يعنيهم الا الحصول على اكبر مايمكن من الوارد بالضرائب وغيرها . وبدل أن يدفعوا رواتب لجندهم ، ذهبوا الى اقطاعهم الأراضي والقرى ، يأخذون من واردها ضرائبها بدل الرواتب ... وأعطيت الأراضي التي لم يشملها الاقطاع ، بالضمان . وتفنن الضامنون في العسف والتلاعب ، اذ زادوا في الضرائب واستحدثوا رسوماً جديدة ... وبعد هذا فان خيرات البلاد صارت تستغل لفائدة البويهيين واتباعهم في حين تدهور وضع أهل البلاد المعاشي ، كما قلت الخدمات الاجتماعية التي كانت الدولة تقدمها ... وقاست المدن كثيراً من جو عدم الاستقرار والتعرض للتعدي والنهب من الجند حيناً ... ومن القبائل حيناً ... » .

والى جانب العامل القومي والعامل السياسي المتمثل في حكم الاعاجم ، والعامل الاجتماعي الذي تجلى في الظلم واضطراب شؤون المجتمع وكثرة الضرائب ، نضيف سبباً آخر في غربة هؤلاء الأدباء الذين عاشوا مأساة عصرهم ، ونعني به العامل الفردي النفسي المتمثل في رهافة الحس مما كان يجعل هؤلاء الأدباء وكأنهم يصرخون في واد ، وهذا الاحساس المرهف هو وحده الذي جعلهم اكثر بصيرة بما يدور حولهم ، واكثر ألماً لما يرون ، وأقدر تصويراً لما كانوا يشعرون وما كان يشعر به افراد المجتمع العربي في ذلك القرن .

(١) الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . ص ٨٧ وما يليها .

من الحماسة إلى المديح

محيي الدين صبحي

لم يدرس الأدب العربي في العصر الحديث على أسس قومية ، ولا على أسس اجتماعية، بل يدرس دائماً بعرض تاريخي طولاني ، تمحي فيه ملامح الأمة من وجه التعبير الأدبي ، ثم يصدر الدارسون أحكامهم في صيغة كليشهات هي مجموعة من آراء النقاد الأقدمين والمستشرقين المحدثين الذين يستندون بدورهم أحكامهم الى المفهومات الحديثة للمجتمع الأوربي. ومن جملة الخطأ في مناهج الدراسة القائمة أنها تهمل المثل العليا للمجتمع البدوي كما يعكسها الشعر الجاهلي ، وتنصرف الى تحليل الفخر كنزعة تدل على « فردية » البدوي ، وتحليل المديح كظاهرة تدل على النفاق الأدبي .

وسنحاول في هذه الدراسة وضع مقولات عامة تربط بين الفخر والمديح من جهة ، وبين تطور المجتمع العربي جملة ، على أساس ان هـذين الفنين يحتويان على القيم الأساسية لهذا المجتمع ، هذه القيم التي مورست قليلاً اواخر ايام الجاهلية واوائل الاسلام، ثم تحولت الى مثل عليا ينشدها الناس في رؤسائهم ثم يفتقدونها فيهم قليـلاً او كثيراً . وسنحاول ايضاً ان نعرض ملامح هذا الفراق المؤسف بين المثل والواقع ، والذي تزايد في عصور الانحطاط وعهد السيطرة العثمانية ، ثم وصل إلينا في مطلع القرن الحالي وبرز مع بروز ادب الكيانات العربية المجزأة بعيد الحرب العالمية الأولى - وقد ساعدت البنية الاقطاعية - البرجوازية لمجتمعات هذه الدول على الاحتفاظ بأسوأ مخلفات ادب الانحطاط من حيث الفردية المتورمة ، والاستسلام للفراق بين المثل والواقع .

غير أن تأكيد هذه الأحكام لايتم الا بتحليل للمجتمع العربي من حيث بنيتـه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، لأن هذه البنية هي التي تحدد في نهاية المطاف قيم المجتمع

العربي في كل مرحلة من مراحله ، ومضمون البنية الفوقية فيه ، التي تضم فيما تضم النتاج الفني والثقافي . فالعصر الجاهلي مثلاً ،باقتصاده القائم على الصيد والرعي والغزو ، لايمكن الا أن يكون مجتمعاً بدوياً يتمايز الى قبائل تقسمه بشكل مبدئي روابط النسب ، الا انه قبيل الاسلام بدأ يتمايز على اساس جغرافي وذلك تبعاً لنمو التجارة ونشوء المدن ــ محطات القوافل والتموين ، ثم نشوء مفاهيم المجاورة والحماية والالحاق في وسط المجتمع البدوي ، مما وسع دائرة الولاء من دائرة النسب الى دائرة المجاورة ، وكان يوجد ايضاً جغرافية للتجمعات القبلية في مواطن الماء والكلأ ، اضافة الى التجمعات المدنية التي نشأت في قلب الجزيرة وعلى اطرافها منذ فجر التاريخ .

ان عصر البداوة هو عصر البطولة في أي مجتمع تاريخي . وهو ينتج على الدوام الشعر الغنائي والشعر الملحمي : وفي هذين النوعين من الأدب يلتصق التعبير بالواقع التصاقاً يصح ان نقول فيه ان لكل أثر ادبي اساساً في الواقع المعــاش ، فردياً كان ام جماعياً . ومن خلال تبلور القيم والأحداث تندمج المعايير الأدبية بالمقاييس الأخلاقية ، ويغدو الأدب صورة عن المثل العليا للمجتمع البدوي ، لذلك كان الشعراء الفرسان هم ألسنة ذلك المجتمع وأعلامه باعتبار انهم أيديهم شؤون السلم والحرب . ولعل المثل التقليدي للشاعر الفارس هو عنترة بن شداد صاحب المعلقة التي مطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم

ويوصف عنترة عادة بأنه نموذج الشاعر الفارس العف المحتشم الكريم :

وأغض طرفي ان بدت لي جارتي   حتى يواري جارتي مأواهــا
إني امرؤ سمح الخليقة ماجــد   لا أتبع النفس اللجوج هواهــا

سوى أن سيرة عنترة الشخصية تفسح المجال للتحليل النفسي الفردي أكثر مما تتيحه للتحليل الاجتماعي الذي هو بغيتنا في هذا المقام . لذلك سننصرف عنه الى شاعر ماجد ، هو في الذؤابة من فرسان العرب وشعرائهم وشيوخهم . وقد عمر طويــلاً في الجاهلية ثم أدرك الاسلام ولم يسلم . ذلك هو دريد بن الصمة سيد هوازن وفارسها . وقد اتفق أن ظفرت هوازن بغطفان في احدى غزواتها ، فلما انسحبت غطفان كر عليها بنو هوازن إلا دريداً وقف ينادي قومه ويحذرهم بأن انسحاب غطفان مكيدة فلم يسمعوا له . وقد ارتدت غطفان على هوازن وهزمتها وقتلت من أفرادها عدداً كبيراً كان بينهم عبد الله بن الصمة أخو دريد . فقال دريد يصف المعركة ويرثي أخاه :

(١) أمرتهم أمري بمنعرج اللوى   فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

وهل أنا إلا من غزية ، إنغوت   غويت ، وان ترشد غزية أرشد
تنادوا فقالوا : أردت الخيل فارساً   فقلت : أعبد الله ذلكم الردي ؟

* * *

فجئت اليه والرماح تنوشه   كوقع الصياصين في النسيج الممدد
(٢) فطاعنت عنه الخيل حتى تنفست   وحتى علاني حالك اللون أسودي
قتال امرىء آس أخاه بنفسه   ويعلم أن المرء غير مخلد

* * *

(٣) فان يك عبد الله خلى مكانه   فما كان وقافاً ولا طائش اليد
قليل التشكي للمصيبات، حافظ   من اليوم أعقاب الأحاديث في غد
(٤) وطيب نفسي أنني لم أقل له   كذبت ، ولم أبخل بما ملكت يدي

اخترنا هذه المقطوعة الحماسية لأنها تخدم أكثر من هدف لهذه الدراسة . فهي أولاً تقدم صورة كاملة عن القصيدة الجاهليةبين يدي الشعراء غير المحترفين . وفيها نرى وحدة الموضوع وتسلسل المشاهد والمعاني بشكل منطقي ودونما انقطاع او قفزات ، على الرغم من حذف بعض أبيات في مطلعها ونهايتها . وهي في هذا السياق تعرض مكان الفارس من القبيلة وتضامنه معها حتى في الخطأ والضلال ، ثم يسرد من المعركة فقط تفاصيل مقتل أخيه ودفاعه عنه ، واخيراً يرثيه . فالشاعر وان ادرك خدعة الاعداء وغفلة قومه فانه لم يجد ذلك ذريعة للتخلي عنهم حين ادركهم بأس الغطفانيين ، بل كان ذلك سبباً له كي يسرع الى نجدتهم وتخليصهم من مأزقهم . وحين تنادوا فقالوا : أردت الخيل فارساً ، سارع دريد وسط المعركة يتساءل : أعبد الله ذلكم الردي ؟ وفي هذا السؤال ما فيه من البراعة في الكناية والتلميح . فان قتل الاعداء فارساً ، فلابد أن يكون هذا الفارس على رأس كوكبة هوازن في البسالة والأقدام حتى تقصدته رماح الغطفانيين . وهو أكثر دراية منهم بشجاعة اخيه وجرأته على العدو . لقد علم بمقتل اخيه منذ ان سمع الفرسان تتنادى للدفاع عنه ، فاسرع الشاعر لنجدة أخيه حتى لحق بـه أوكاد ، فوجد الرماح تتكاثر عليـه بين صاعد وهابط كأنها « المكوك » - الصياصي - في النسيج المدد . قذف الشاعر نفسه في المعركة وشد في حملته حتى كسر طوق الحصار عن جثة أخيه ، وفرق الفرسان بعد ان جلله غبار المعركة الأسود . لقد كان في حملته

تلك خطر عليه ، لكنه كان في تلك الحالة يواسي أخاه عن مصرعه ويطمئنه بأنه سيحمي ذمار القبيلة بعده متابعاً حل رسالته البطولية مهما عرضته للمهالك ، لأنه يعلم ان المرء لابد أن يموت ولن يخلد اذا توقاها .

والآن ، وبعد ان انجلى غبار المعركة عن مصرع البطل وشغر مكان عبد الله بين صفوف الفرسان ، فيجب ان نعدد من مآثره انه لم يكن متردداً ذاهلا وسط المعركة (وقافاً) - كما انه كان ثابت الجنـــان يسدد ضرباته حيث يريد ، فلن تطيش يده عن أهدافها فرقـــاً ولا توجساً بل كان ركيناً رزيناً لا يخيل لبه اذا حمي الوطيس وذهلت الفوارس . . وكان هذا شأنه إيام السلم ايضاً ، فيصبر للنوازل ولا يشتكي عبث الدهر ، وكان حافظاً لسمعته ، فلا يرتكب ليومه عملاً يمكن ان يسيء في مقبل الأيام الى صيته الحسن ، بل كان في كل اعماله يلزم حد الفارس الكريم .

ويختم الشاعر قصيدته باعلانه انه راض عن نفسه في معاملته لأخيه من حيث انه كان يسايره في السر والعلن ، فلا يشكك بأية من دعاواه ، كما انه لم يبخل على اخيه بماله ولا بجاهه . وهو لايقصد في قوله الثناء على نفسه بقدر ما اراه ان يقول ان اخاه عاش عيشة كريمة ، فقد كان سيداً في أهـــله وعشيرته بقدر ما كان فارساً شديد البأس على الأعداء .

على الرغم من أن العصر الجاهلي لايمتد الى أكثر من مائة وخمسين عاماً (٤٧٥ - ٦٢٢ م) فان معظم الشعر الذي وصلنا لايرقى الى التاريخ المحدد كبداية بل يقع بعد بداية القرن السادس . ولما كان دريد قد أدرك الاسلام ولم يسلم فانه عاش في بحر هذا القرن وبعد ثلثه الأول بالتحديد . أي في عنفوان اندغام الحياة بالقيم والتعبير ، وفي فترة نضج هذه العناصر جميعها كأوفى نضج منح للأمة العربية ولحضارتها المقبلة طابعه الخالد الثابت . من هنا فان للملاحظات التي تثبتها عن النص قيمة كبرى اذ علينا سنقيس تطور شعر الحماسة في المستقبل ، ولو ان علينا في البدء ان نسجل ان شعر الحماسة لا يقتصر على شعر الشجاعة والحرب ، بل إن مفهومه يتسع لكل مايشمـــله مفهوم « الصبر على الحوادث والتجلد للايام » كما يقول أبوتمام لأن « الصبر عليه كالصبر على القتال » كما يعلق التبريزي في شرحه على أبي تمام . أي أن باب الحماسة في الشعر يشمل كل ما ينطوي على تجلد وصبر وشدة وصلابة نفس سواء في الغزل ام في الهجاء ام في الرثاء ، أي كل ما يساهم في صنع القيم ، الذي هو صميم موضوع هذه الدراسة .

٧ - نجد ان القصيدة (تعبير حر) ، أي غير موجهة لأحد يراد خطابه

٢ – على الرغم من أن قائلها متميز عن الجماعة فانه يؤكد على اندماجه بالجماعة (نفي التايز)

٣ – تأكيد الذات خلال الممارسة (هنا خلال المعركة) .

٤ – تمجيد الشدائد والصبر عليها (الايمان بالصراع)

٥ – النظر إلى الموت كظاهرة طبيعية وليس كمصيبة ذاتية (تشيؤ الموت) .

هذا بالنسبة إلى القيم الخلقية والاجتماعية أما بالنسبة إلى القيم الفنية فنحن نرى في النص المميزات التالية :

١ – (الموضوعية الواقعية) حيث ان القصيدة أشبه بتقرير صحافي عن المعركة .

٢ – (الزخرفة بالاشارة) أي الابتعاد عن التعبير المباشر ما امكن :

« أردت الخيل فارساً » « فطاعنت عن الخيل حتى تنفست »

٣ – (الموضوعية الأسلوبية) حيث يقع الأسلوب في خدمة المعنى وتقع الاستعارة في خدمة التشبيه او الكناية .

٤ – الجزالة في الأسلوب والمتانة في التركيب .

وسنرى كيف انزلقت هذه القيم بالتدريج إلى عكسها ، حين بدأ انفصال القيم عن الحياة وعن التعبير – إلى أن أصبح الشعر وسيلة التخدير لا للتحذير .

ان القصيدة الماضية بكل قيمها الخلقية والفنية تمثل الحالة القصوى من وحدة الذات والموضوع . ان المتأمل والفاعل والمعبر دلالة على هوية واحدة لاانفصال ولاانفصام ولاتمييز بين هذه العناصر الثلاثة في الشخصية الواحدة . غير أن تمايز المجتمع العربي إلى بدو وحضر وبروز الروح القومية حيناً بفعل الضغوط الخارجية وحيناً لتلاقي التناقضات القبلية الداخلية ، وظهور تشكيلات سياسية على حدود الجزيرة ، وتكاثر السكان وانتظام التجارة العالمية عبر طرق الجزيرة . كل ذلك أدى إلى شيء في تقسيم العمل ، فتمايز الملوك والأمراء والشيوخ مثلما تمايز التجار والسراة وقبلهم تمايز الشعراء والحكماء والكهان عن جسد الأمة العربية القبلية . ومع هذا التمايز انفصلت قيم الأخلاق والفعل والتعبير بعضها عن بعض وان ظلت تحتفظ لجوهرها (لمضمونها) بالمكانة العليا نفسها التي أحلها بها المجتمع البدوي في عصره البطولي الذي لما يكد يأفل بعد . غير أن التمايز في المدن كان أوضح منه في الصحراء . وهو ماشعر به العرب منذ ذلك الحين فجعلوا أهل الوبر (البدو) أفصح لساناً وأثبت جناناً من أهل المدر (أهل المدينة) .

تتبين قسوة هذا التمايز ، لا في ظهور فن المديح منفصلاً عن الحماسة والفخر فقط ، بل أيضاً في نوعين من المديح ظهرا متعاصرين وان حاز كل منها على تقييم يختلف

عما حازه الآخر . وذلك في الفرق بين تقييم زهير بن أبي سلمى المزني وزياد بن معاوية الملقب بالنابغة الذبياني ، من قبل معاصري الشاعرين ، مع العلم بأن الأول توفي حوالي (٦٠٩ م) والثاني توفي حوالي (٦٠٤ م) .

أ - فأما زهير فيمثل المديـــح البدوي ؛ أي أن التعبير وإن استقل عن الفعل حسب القيم ، فقد ظل يستند إلى الواقع العيني في المطابقة بين القيم والفعل لصياغة المديح .

وقد أدرك العرب ذلك في حينه وأدوا شهادتهم لصالح زهير فيما يتعلق بالصدق ، أي المطابقة المذكورة . وحسبنا رأي رجلين من أعظم العرب بصراً بالحياة والشعر .

١ - فأما الأول فهو الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان يقدم زهيراً على سائر الشعراء ، ويقول فيه : « زهير شاعر الشعراء ... كان لايعاظل في الكلام (لايداخل بعضه في بعض) ، وكان يتجنب حوشي الكلام ، ولم يمدح أحداً إلا بمـــا فيه ، ولايقول إلا مايعرف » .

والجملتان الأخيرتان في رأي الخليفة عمر بدلان على مدى حرص زهير على ألا يستخدم ملكة التعبير المطابقة بين القيم والفعل فيستعيد بشكل صنعي وحدة الهوية التي كانت سائدة في العصر البطولي .

٢ - ويقول في زهير ، محمد بن سلام الجمحي أحد أوائل النقاد العرب : « ان من قدم زهيراً احتج بأنه كان أحسنهم شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعاني في قليل من الألفاظ ، وأشدهم مبالغة في المدح مع الاحتياط ، حتى لايخرج بمعانيه إلى الغلو ، كقوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من أحد قوم بأحسابهم أو مجدهم ، قعدوا

فتفطن إلى قوله (لو) » .

ان رأي الناقد العظيم لايخرج عن رأي الخليفة العظيم ، سوى أن رأي الناقد صيغ حسب تعابير صناعة النقد . فقوله بكثرة المعاني مع قلة اللفظ يدل على ازدحام القيم في صدر زهير وعلى كون شعره يصدر عن تمجيد القيم وليس عن اللهو باللغة - هذا مع العلم بأن زهيراً كان من « عبيد الشعر » الذين ينقحون ماينظمون ، وهو صاحب « الحوليات » فلو كان له مأرب في تجويد اللفظ فقط لكان له في العام فسحة لتجويد أسلوبه بما يخرج به عن تأكيد القيم . إلا أن شاعرنا كان يتقيد بالواقع ويجعل الأسلوب خادماً للقيمة الخلقية ، لذلك كان أشد الشعراء الجاهليين مبالغة في المدح - « مع الاحتياط » .

ب – وأما النابغة فعلى الرغم من أنه كان من سراة قومه وسادة ذبيان ، القبيلة المتجبرة التي انخرطت في حرب داحس والغبراء أربعين عاماً ، والتي تنافس الغساسنة والمناذرة على كسب ودها ، فقد قال الشعر في المديح ، واستخدم مديحه للتكسب فسقط من عيون معاصريه ومن عيون النقاد . وكل من كان يقدمه كان يقدمه لأسباب فنية بعيدة عن خدمة القيم .

١ – يقول ابن سلام « واحتج من قدم النابغة على غيره من شعراء الجاهلية بأنه كان أوضحهم معنى ، وأبعدهم غاية (بتطلب معاني جديدة) » .

٢ – غير أن النابغة كرس الانفصال بين الأخلاق والفعل والتعبير ، فكان أول شاعر ألبس لبوس القيم لمن ليس من أهلها . فلم يمدح الرجل الا بما فيه ولم يتحوط من الغلو . وأبلغ شهادة في ذلك قول ابن رشيق :

« ... ذلك أن الشعر لجلالته يرفع من قدر الخامل اذا مدح به مثلما يضع من قدر الشريف اذا اتخذه مكسباً ، كالذي يؤثر من سقوط النابغة الذبياني بامتداحه النعمان ابن المنذر وتكسبه عنده بالشعر ، وقد كان (النابغة) أشرف بني ذبيان . هذا ، وانما امتدح قاهر العرب وصاحب البؤس والنعيم ... وكانت العرب لاتتكسب بالشعر ، وانما يصنع أحدهم مايصنع فكاهة او مكافأة من يد لايستطيع اداء حقها الا بالشكر ... حتى نشأ النابغة ، فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر – وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته او من سار اليه من ملوك غسان – فسقطت منزلته . وتكسب مالاً جسيماً حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة ، واوانيه من عطاء الملوك . »

وهذا الذي يوصف بأنه قاهر العرب وصاحب النعيم والبؤس فيهم ، قد سمع النابغة يقول فيه :

بعثت على البرية خير راع	فأنت امامهم والناس دين
وانت الغيث ينفع مايليه	وانت السم خالطه اليرقون

فجعل النابغة من ممدوحه أفضل الناس وأبرّهم بالناس ، في حين أنه كان أشبه بطاغية مجنون يستبيح دماء الناس في يوم وحقوقهم في يوم آخر . كما ان هذا « الامير » الغلي الذي مات أكثر أسلافه وأخلافه قتلاً على يدي أكاسرة الفرس ، قد سمع النابغة ايضاً يقول فيه :

ألم تر أن الله أعطاك سورة	ترى كل ملك ، دونها يتذبذب

ما أشبه الليلة بالبارحة : فهذا الأمير الذي لايملك لنفسه حولاً ولا طولاً يسمع من شاعره ان كل الملوك يرهبون ويرتجفون هلعاً من سورته ! ما أقرب هذا المشهد الذي نصب على مسرح الفكر العربي منذ ألفي عام بالتمام والكمال – ما اقربه مما رأيناه أمس من مدائح الشعراء لملوك العرب الجدد الذين نصبتهم بريطانيا ، ومما نراه اليوم من افتخار الشعراء بالكيانات العربية القائمـة وبقدرتها على تغيير المصير العربي بأسره والانساني بعامة ، مع اهمال مدى الاخطار الماحقة التي تهدد مجتمعاً مجزءاً متخلفاً لم يتوصل بعد مائة عام من احساسه بذاته ، الى وضع الأسس الاول لبنائه السياسي والاقتصادي ككل لا يتجزأ .

المذاهب الفنية في روسيا الأولى

خليل الهنداوي

كانت الآثار التي عنيت بالمذاهب الفنية قليلة في الأدب الروسي. وفلسفة الفن انما تظهر أكثر ما تظهر في معرض النقد الأدبي والفني. وان اسم « بيالينسكي ١٨٤٨ — ١٩١٠ » يشغل في هذا الميدان، مكانا مرموقاً. وقد يشبه أفكاره الفنية في الأدب الروسي تأثير الناقد الجرماني « ليسنغ ». وقد استطاع بما أوتي من غريزة نابهة فنية، وذكاء حاد جدير بالمسائل الفلسفية والاجتماعية أن يجعل من النقد الفني منبراً عالياً يبث عليه تعاليمه الانسانية.

ثم جاء بعده رجال آخرون بنوا نقدهم الفني على « قومية » ضيقة كالناقد « ستراكوف » صاحب كتاب « الحرب ضد الغرب »، وهو عنوان يدل على ما فيه برغم صفاء أسلوبه.

ونجد « ستراكوف » في معرض تحليله لقصة تولستوي « السلم والحرب » يأخذ عليه أنه خلق فيها نماذج تبعاً لتصوراته الخاصة. « فاذا كان تصور الفنان خاطئاً فان ثمة أثره الفني على خطأ أيضاً. ان تولستوي يؤمن بالأسرة، ولا يؤمن بالهوى. وأبطال قصصه انما يجرون على نمطه ».

وستراكوف يرى مع ذلك ، أن هذه القصة تصف حق الوصف المثالية الروسية التي تتجلى في محبة الجمال والخير والبساطة . وكل النتائج الفنية ، في رأي ستراكوف ، لها جذور واحدة ، ونهاية واحدة هي التعبير عن نفسية هـذا الشعب أو ذاك . كل أثر فني ينبغي أن يعكس خصائص عصره ، وخصائص الشعب الذي ينتمي اليه صاحب الأثر . وهكذا يجب أن تطغى « القومية » على الفن والأدب .

ونرى « ايفانوف » في دراسة بعنوان « المثل الأعلى في الفن » يجرب ان يبين لنا أن غاية الفن هي البحث عن المثال الأعلى . ان دور الفنان هو أن ينقل الى الآخرين الأحاسيس التي يشعر بها .

وهذا « كالنيوف » عنده الجمال أو المتعة الفنية غريزة انسانية ابتدائية ، تتصور في أغوار النفس – لا شعورياً – ثم تقع شيئاً فشيئاً تحت نفوذ الشعور . وبما انها غريزة ابتدائية فهي غير عقلية ، أو بالأحرى ، لا تقع تحت نفوذ الدساتير المنطقية . ان جال الفن يخضع « للحقيقة » التي تعبر عن نفسها .

وذاك « بوبوريكين » يجحد فائدة النقد في الفن ، ويعتقد ان دوره شؤم لأن النقد لا يعمل الا على اخضاع الفن لحاجات عابرة في هذه اللحظة .

و « أبوللسكي » جرب أن يكتب دراسة في المذهب العلمي للفن ، فكان ان وجد ان خير مذهب ، وأدناه الى العلمية في تحليل الفن هو المذهب « النفسي – العضوي – الاجتماعي » وهذا المذهب يعنى في دراسة الأسباب او شروط وجود الحادثة الفنية ، اي يبحث دراسة الأصل ، او تكوين الفن .

وبعد أن حلل الضروب المختلفة الفنية ، من موسيقى ونحت ، وتصوير ، وعمارة وشعر ، وبعد ان استشهد بدوركي وسبنسر وتارد وتين وغيرهم ، بين اصول تكوين الفن بهذه الأشياء :

١ – التأثير .

٢ – الشيء الذي يخلقه الفن .

٣ – اثارة السرور بالتأثير الفني .

وبعد اثبات الأمثلة النفسية والاجتماعية يصل الكاتب الى مثالية الاثر الفني والتأثيرية . اما بقية العوامل عنده فهي تشبه البياض والمح في البيضة ، فهما ليسا بأصل ولكنها غشاء البيضة ، ومكان تكوينها .

ان اصل الفن هو الرغبة في « تزويق » التعبير ، وتحويله الى ينبوع فرح ومسرة . والفن – كما يردد الكاتب – ماهو الا تعبير مزوق يرتفع حتى الكمال في كل ضروب الفن .

وهكذا يصل « ابولنسكي » الى التأثر الفني ، ويعتقد بأنه يمثل واحــداً من اشكال السرور ، ولا يختلف هذا التأثر عن غيره الا بأنه يتحد بكل احاسيس نفسنا .

وخلاصة مايراه :

١ – إن الفن هو التعبير المزوق عن التأثير .

٢ – التأثير الفني يشترك مع هذا التعبير في التأثير في الجملة العصبية . هذا التأثير الناتج عن السرور .

٣ – السرور الحاصل بالفن ينسجم بدوره مع حركات النفس من اي نوع .

٤ – السرور الفني ما هو الا وسيلة ولا يمكنه ان يصير غاية الا في الفنون الدنيئة .

٥ – في حالة اظهار اثر فني ينبغي ان يرافق النقد الخلقي والاجتماعي « تصور الأثر » ، وفي حالة المظهر تكون الأفضلية للنقد الفني .

٦ – المضمون في الأثر الفني ترجح قيمته على الشكل .

٧ – ان الأثر الفني الفقير الى الشكل الفني يفقد أكبر وسيلة للتأثير في الجمهور ، لأنه لايترك اي سرور يذهب في النفس .

ان النقاد الذين عاصروا كتاب تولستوي « ما هو الفن ؟ » قـــد تقبلوا مذهبه الفني براحة ، كما تقبلوا الكاتب نفسه .

ان الفنان ينبغي له – بدون شك – ان يشارك الفئة الانسانية ، الحائرة دائماً ، والطبيعة كلها واللانهاية ، ولكن يجب عليه ان يحفظ « ذاته » .

ان تعليم الجمال للشعب لا يزال في دور العمل ، والجماعة لا تستطيع ان تحيط – في القطعة الفنية – بفكرة الفنان ، وتقع على التأثيرات التي ابتدعها .

ان اشتراك الفنان مع الجماعة قد يؤمن للفنان فوائد مادية ، ولكنها هي ، في الوقت ذاته ، برهان الارتشاء ، لأن الفنان لا يستطيع ان يصل الى هذه المشاركة الا بمخادعة الذوق ، واثارة الغرائز الدنيئة .

ان الفنانين هم عناصر الطبيعة ، وهم يخضعون لنواميسها كما تخضع المغارس . هنالك ازهار ، لاتتفتح بانطلاق ، الا اذا عاشت وحدها ، مفصولة عن غيرها من النبات .

وبما وهب الفنانون من فيض في الشعور والتأثير والقلق . راحوا يبدعون ، في شعرهم ، ولحنهم وتصويرهم ، اصول الحياة . وهكذا لا يفلت الفنان من اي نظام للطبيعة. وهو بمقدار ما يستجيب احساسه لنظمها يزداد تعبيره عنها احساساً ، وبمقدار ما يتصل بالانسانية يقل كفاحه من اجل غرس تصوراته ، فلا فكرة تضيع ؛ وما يتأمله فيلسوف في غرفة مظلمة ، وما يحسه المصور في مرسمه ، وحده مع اوهامه قد يعرفه كل واحد منا . والانسانية لا تحيي افكار الشعراء والفنانين فحسب ، بل تفكر في نفسها عما تذوقوه من آلام في سبيلها .

ولتزدر الانسانية المنحطة هذا الفنان اليائس ، والمفكر الحيي المنعزل ، ولتقدس غيرهم ممن يعنون بالمظاهر ، ويهمهم الانتصار العاجل ، ويحنون ظهورهم لأمراء جيلهم . فالمستقبل لن يكون لهم ، انهم لم يشيدوا إثينا ، ولم يرفعوا روما . بل رفعها اولئك الذين تمرسوا بقوة موهبتهم ، ولم ينحنوا ابداً تحت نير الجماعة ، ولم يبالوا بالعظمة الفارغة .

ان الطبقـــة الروسية المثقفة استسلمت الى الفن بروح خاشعة ، متعبدة ، وحينما أعيام أن يمثلوا دوراً اجتماعياً ، اتخذوا من الفن هيكلا يستمدون منه معتقداتهم . الفنانون أنفسهم يعتقدون بأن أصل الفن هو جنوح الانسانية نحو الجمال الأسمى . لقد كان عندهم فكرة جـــد سامية عن مهنتهم . فالظلال ، والأضواء ، وانسجام الخطوط والألحان لا تشغل الفنان الروسي والشاعر والموسيقي والنحات كما تشغـــله الفكرة ، والمثل الأعلى .

في الفن اليوناني ، والفن الفرنسي نجد الجمال هو الغاية ، والجمال هو الآلة . وفي الفن الروسي نجد المادة هي الآلة ونجد الأصـــل ، والغاية ، والنهاية في الفن هي هذه الفكرة .

والجمال الفني – عند الفنانين الروس – لا يظهر فقط في تحقيق « المظهر الفني » وعندهم أن الآثار الفنية حينما تكون بدون تعبير ، فانها لا تثير أية عاطفة . وعند ذلك تأتي صفوفاً تتفاوت تأثيراً من ألوان أو أشكال أو ألحان .

وفي هذه الحالات يحسن بها أن تكون مريحـــة للأعصاب ، مسلية للنفس ، نافية للسأم . ولكن لا يمكن أن تكون مهذبة ، ينطبق عليها « الفن الاجتماعي » .

ان الفنانين الروس يبحثون عن الفكرة قبل الشكل . بينما الفن اليوناني مثلاً يبلغ نقطة الاتصال بـــين الفكرة والمادة بتفتح اللمعات الشكلية ، والشاعرية المنسابة بين الخطوط .

هذا الشكل الذي يتسامى على نفسه ، بكماله الخاص ، ويلمس جوانب العالم غير المنظور ... ان هذا الشكل يجهله الفنانون الروس .

انهم يريدون « الفكرة » رأساً ... الفكرة الملزمة ... بل يعتقدون أن الفنان هو « شرطي » على الأخلاق .

ان قاعدة الفن – عندهم – الحقيقة والأخلاق . وغايته – عندهم – هي غاية اجتماعية تهذيبية ... فالفنان رسول ملزم باذاعة الأفكار الكبرى والأعمال النبيلة .

ومن هذه الناحية ، نجد الفنانين الروس يلتقون مع أزخم العبقريات الانسانية . فبيتهوفن وضع في صميم موسيقاه ، شيئاً غير الموسيقى ، فعبر بها عن عواطف وأفكار . كما وضع في « سمفونياته » التي عاصرت الثورة كثيراً من الحقائق الاجتماعية . وترى « فاغنر » يجعل الفن الحقيقي لا يمكن تأسيسه الا على قاعدة « الأخـــلاق » الحقة . وربما ضارعت قيمته قيمة الدين .

وهكذا نرى الفنان الروسي يبحث ، قبل كل شيء عن « قاعدة خلقية » لفنه .

فهذا المصور « ايفانوف » الذي يحتل في الفن الروسي منزلة « سولوفيوف » في الفلسفة الروسية ، انـــه وهو الفنان والشاعر ذو النفس الخيبة ، لبث عشرين عاماً في لوحته المعروفة باسم « ظهور المسيح للشعب » وقد داهمه الموت دون أن يتمها . فجمال وجه المسيح قد ألهم الكثير من أصحاب العبقريات ، ولكن الذين لم يروا وجه المسيح – لايفانوف – يجهلون عظمة شاعر بيت لحم .

وهكذا – ريبين – في لوحته عن تولستوي لا يبحث فقط ، عن التشابه الظاهر المؤثر ، بل يبحث عن نفس الكاتب التي تتجلى عبقريتها في الصورة بقدرة خارقة . انه « تولستوي » الذي تصوره « اعترافاته » ... انه تولستوي واضع « ديانة » جديـــدة ...

وأما النحت فقد كان الاهتمام به أقل من التصوير ، لأن المذهب الارثوذكسي الروسي يرى أن فن النحت أشبه بأخـــلاق الوثنيين . ولذلك لم يعش النحت الا على هامش العمارة .

وفي الموسيقى نرى غلينكا ، وموسورغيسكي ، وبورودين ، ورمسكي كورساكوف » لا يكتفون بغنى الايقاعات ، ولكنهم يبحثون ، قبل كل شيء ، عن أفكار ... وأخلاق ...

ان في روسيا فرعاً من الفن الموسيقي قادراً على أن يقدم حصاداً غنياً ، ولكنه

ويا للأسف ، قل من يرد مناهله ... ذاك هو الأغاني الشعبية التي تتميز بالأصالة والجمال العميق . كل قطر له تعابيره الموسيقية التي ترسم نفسية شعبه ، سواء وردت في أغانيه ، أو أساطيره ، أو رواياته . تحمل معتقداته الخفية ، وذكرياته الرقيقة ، أو انفاســه الشعرية ، الغريبة الفاتنة .

ان ألحان الشعب تعبر ، عادة ، عن خلقه ، وعبقريته ، وأحلامه وسماته . ومن الخطأ إهمال هذه الأغاني الشعبية التي ستصير الى الاضمحلال ، اذا لم نبادر الى تسجيلها .

واخيراً ، لنستطيع أن نرجع ضآلة الآثار المتعلقة بالمذاهب الفنية الى فقدان حرية الفكر آنذاك ، والحرية شرط اساسي في ازدهار الفن .

واما وجهة الفنانين الروس في توحيد الفن مع الفكر فهي وجهة وجيهة . لأن الفلسفة والفن انما تنبعان من مصدر واحد ، تجسيد شكل او فكرة .

ليست الفلسفة الا ضرباً من ضروب الفن ، وليس الفن الا فرعاً من فروع الفلسفة . فالأحلام الشعرية تزدهر دائماً في حـــدائق الفيلسوف والفنان . وعندما يتقارب الفن والفلسفة ويمشيان معاً نحو غاية اجتماعية فالعبقرية المأخوذة بعظمة الكون ترتفـــع نحو الأعالي المجموعة ، وتكشف عن النفس الانسانية أسرارها المجهولة ، وتساعد على هتك الستار عن « اللانهاية » التي تتجاذب الينا الانسانية الحية .

قـــد يكون ممكناً أن نجهل : لماذا هذا الشيء يبدو « جميلاً » ولماذا نشعر بغبطة عميقة ازاء تمثال من تماثيل (ميشيل انج) او عذراء حيية من عذارى (ليوناردي فنشي) او صورة من صور (رافائيل) .

ولا ندري لماذا توقظ هذه السمفونية (لبيتهوفن) فينا تأثيراً عميقاً عذباً ، ولماذا يخلق مرأى الطبيعة في انفسنا رعشات بالجمال ؟

ان علم ما وراء الطبيعة « جرب منذ بعيد أن يجلو هذه الأسرار . » وعـــلم « الأعضاء » اثبت لنا جهله بها وعجزه عنها ، انه سجل الاهتزازات العصبية التي يصاحبها السرور . والرابط الذي يقيده بحواسنا . اما « لماذا » ؟ المجهولة فـــلم يستطع ان يجيب عنها ...

ان الجمال موجود ، فلنحبه ! لأن هناك دوافع عميقة تهزنا نحو حبه .

الندوة الفنية التي عقدت في القاهرة

في قاعة الفنون الجميلة — في ١٦ / ٩ / ١٩٧٠

حول أعمال الفنانين السوريين عن العدوان الاسرائيلي

على الشعب العربي

المشتركون في الندوة :

١ ـ بدر الدين ابو غازي	وزير الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة
٢ ـ أبو صالح الالفي	مؤرخ ، وكيل وزارة التربية والتعليم
٣ ـ حسين بيكار	فنان وناقد
٤ ـ كمال الجويلي	ناقد ورئيس القسم الفني في جريدة «المساء»
٥ ـ صبحي الشاروني	ناقد ومحرر فني
٦ ـ عبد المنعم القصاص	سكرتير تحرير مجلة الطليعة المصرية
٧ ـ غازي الخالدي	فنان وناقد سوري

اقيم في القاهرة ما بين ١٤ - ٢٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ معرض متجول بعنوان «الفنانون السوريون يشهدون العدوان»، اشترك فيه (١٣) فناناً تشكيلياً هم: ليبيب رسلان، ممدوح قشلان ، محمود حماد ، فاتح المدرس ، غازي الخالدي ، الياس زيات ، خزيمة علواني ، نشأت زعبي ، خالد المز ، غسان السباعي ، نعيم اسماعيل ، نذير نبعة ، أسماء فيومي .

وافتتح المعرض وزير الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة وسفير الجمهورية العربية السورية في القاهرة ، وبهذه المناسبة اقيمت ندوة فنية حول هذا المعرض ، نقدم هنا خلاصة وافية عما دار فيها من مناقشات وعرض آراء .

بدر الدين أبو غازي :

أشار الاستاذ غازي الخالدي في مقدمته القيمة لهذا المعرض ، والمنشورة في كراس المعرض ، إلى ان هذه الاعمال هي ثمرة مراحل مرت بهـا الحركة التشكيلية في سورية وهي ايضاً بدأت عقب العدوان ، بأعمال فيها لغة التشكيل الصحافية ، فيها اللغة الخطابية المباشرة . ثم اخذت تخلص رويداً رويداً من هذا التأثير لتحاول أن تصل الى العمق التشكيلي النفسي الذي يمكن أن تحققه اللوحة في خطابها للوجدان العربي وللوجدان العالمي ايضاً .

ان هذا المعرض في مجموعه يمثل محاولة من افضل المحاولات التي شهدها خلال هذه السنوات ، فلغة التشكيل فيه اكثر نضجاً من لغة التشكيل في محاولات سابقة اخرى ، كذلك فان لغة التشكيل فيه تتقارب مع لغة التشكيل العربي في مصر ، وتشير الى ما أشرت اليه من قبل بأن فضائل هذه الحقبة على الفن التشكيلي هي محاولة تجميع الذات العربية حول لغة متقاربة تعبر عن احداث حقبة اثرت في الوجدان العربي تأثيراً مباشراً واثرت على نحو متشابه في الدول العربية المختلفة ، مما يؤدي بالضرورة الى ميلاد فن تشكيلي كبير . الفن التشكيلي هو دائماً ميلاد الأحداث الكبرى التي تهز الوجدان التشكيلي ، والتي تهز الكيان ، فيتفجر منها اسلوب التشكيل ، لا مضمون التشكيل وحده . واسلوب التشكيل العربي المعاصر موكل بأن يحاول في هذه الحقبة ان يستجمع ابعاد القيم الحضارية التشكيلية ، وان يعيد صياغتها سواء عبر تعبيراً مباشراً عن القدس او عن المقاومة ، او عن مأساة الضياع التي تعتبر من المحاور الاساسية في هذا المعرض او خرج عن هذا التعبير عن الاحداث وانفعالها وانعكاساتها الى مجالات اخرى اوسع وارحب، فلا بد ان تكون لغة التشكيل متأثرة ، بطريقة او بأخرى ، بهذه الحقبة بالجو النفسي الذي خيم على وجدان الفنان التشكيلي والذي خلق في صميم هذا الوجدان

محفزات تدعو الى البحث عن ذاته والى استجماع هذه الذات والى محاولة الخلاص منها بأسلوب تشكيلي يؤكد الكيان العربي ويمكن ان يخاطب الفنون التشكيلية في البلاد الاخرى بلغة مميزة ، هي لغة هذا العصر ، عصر المعركة ، وعصر المقاومة ، وما تفجر عنه من معان ومن قيم .

اعتقد ان هذا المعرض في مجموعه بادرة تدعونا الى محاولة اوسع الى تجميع الأعمال التشكيلية الممتازة في مختلف البلاد العربية والتي تنبعث من وحي الأحداث والظروف ، محاولة تجميع هذه الأعمال والخروج بها الى المجال العالمي . ولا أقصر هذه المبادرة على مجموعة الفنانين التشكيليين السوريين وحدهم ، وإنما هي دعوة ، وهي حافز لنا ، الى ان نستجمع كل المحاولات وكل المبادرات التشكيلية في الدول العربية وان نقيمها تقييما موضوعياً سليما ، وان نستخلص منها افضلها ، وان نخرج منها بمعرض يطوف مختلف الدول ، ويحاول ان يؤكد الكيان العربي الحضاري في حقبة نحن احوج فيها الى تأكيد هذا الكيان وليس اكثر من اللغة التشكيلية عمقاً في الخطاب واثراً في الوجدان العالمي ، فهي لغة عالمية خطابها مشترك ، تستطيع الانسانية كلها ان تستوعبها وان تتفهم ابعادها .

أبو صالح الالفي :

إننا نلمح في هذه الأعمال المعروضة الشخصيات الواضحة للفنانين الذين مارسوا العمل الفني ، ولو ان الصورة الكلية ستعطينا الانطباع بأن هناك فناً سورياً معاصراً يعبر عن المقاومة ، عن احتياجات الشعب ، لكن داخل هذه الوحدة الشاملة نشعر بأن لكل فنان هذه الشخصية المتميزة الواضحة في عمله الفني .

نجد الرمز ، ونجد التجريد ، ونجد الواقعية ، وكذلك نجد التنوع في استخدام الألوان ، والتنوع في استعمال المسطحات او التجسيم ، للبعدين او للثلاثة ابعاد ، الاسلوب التحقي ، الاسلوب الزخرفي ، او الاسلوب التعبيري ، واضح متميز في هذه الاعمال الكثيرة ، نجد الغنى في استعمال الالوان ، وممارسة الالوان الصارخة ، او الالوان الهادئة ، او الابيض والاسود فقط في استعمال قوي عنيف ، فيه التعبير الواضح عن هذا الانفعال الذي يشعر به الفنان اثناء اداء عمله الفني .

وكل هذا يدل على فجر جديد للعمل الفني ، ولعل هذه الاحداث التي تمر بها ساعدت في سرعة صياغة الشخصية الفنية السورية ، لأن العمل الفني الصادق هو الذي

يقوم على احساس باطني قوي بحاجته الى ان يعبر عن انفسنا ، والى ان يعبر عن وطننا والى احتياجات مجتمعنا .

كل هـــذه الأحداث عجلت بالنضج بالفن السوري المعاصر ، ولكنني احب ان اقول كلمة صغيرة في مسؤولية الفن التشكيلي المعاصر لا في سورية وانما في الوطن العربي كله . نحن بحاجة الى ان يخرج الفن التشكيلي الى الجماهير ، يخاطب الملايين من الجماهير ، نريد فناً تشكيلياً في المباني العامة ، يراه آلاف الناس ، في كل ساعة ، وفي كل لحظـــة ، يقص قصة الحرية ، وقصة النضال ، وقصة العدوان ، يقص ويحكي الأمل ، يتحدث عن الأمل ، ينبض باحتياجات هذا الشعب الى الرفاهية والى العزة والى الكرامة والى المجد ، نريد هذا الفن الذي يخاطب الجماهير ويخاطب الملايين ، نريد فناً للمباني العامة .

امامنا الآن في الواقع قصائد شعرية ، قوامها الخط واللون والشكل ، وكما قلت ان القصيد الشعري لا يخلو من الرمز ، فهو يحتاج الى الرمز والمعنى الادبي لكي يصبغ به القالب الذي يعبر به ويصف به افكاره وخواطره . لذلك نجد ان معظم الاعمال او كلها تشترك جميعها في مضامين مشتركة ، هناك قاسم مشترك اعظم بين الاعمال كلها يجمع الرمز ، الرمز الذي يعبر عن المأساة ، واعتداء استعماري على جزء من الوطن ، الوطن الذي يتمثل عندما يصور في الاسرة والارض والاطفال والارض ، كل هذه العناصر كرموز نجدها ممثلة تقريباً في كل لوحة .

حسين بيكار :

نجد الاطفال ممثلين ويرمز بهم الى كائن ضعيف او أعزل اعتدي عليه ، فهنا هذه الرمزية تتجلى بمعناها الادبي في جميع اللوحات تقريباً ، ولكن هناك ايضاً رمزية اخرى ، تجمع بين التفاؤل وبين التشاؤم ، نجدها في بعض الاعمال كالشمس مثلاً ، نجدها في اعمال نعيم اسماعيل وخالد المز ، ونذير نبعة ، نجد الشمس موجودة ايضاً . وهناك شمس سوداء موجودة كقاسم مشترك في بعض الاعمال تحمل طابع الرمز ايضاً ، فالشمس في حركتيها الشروق والغروب تحمل معنى مشتركاً ، في غروبها فيها المعنى المتشائم ، الكئيب القاتم ، وفي شروقها فيها معنى التفاؤل ، ولقد استطاع الفنان نذير ان يعطيها معنى متفائلاً بالشمس المشرقة وراء الجنديين اللذين يحملان السلاح ، واستطاع الفنان نعيم اسماعيل ان يعطينا معنى متشائماً بالشمس التي تهوي بالسماء وتحمر . وراءها ذيلا من سحاب أسود ، والشمس متصدعة وهذا معنى يعطي صورة قاتمة للنكبة . وفي عمل خالد المز نرى

الشمس تحمل معنيين مزدوجين، ففيها اثر النكسة او التشاؤم الذي يعقب النكسة ، وفيها ايضاً التفاؤل بغد مشرق يأتي في المستقبل . فزهرة عباد الشمس في حركتين ، واضحة جداً ، زهرة تكاد تغلق اوراقها وهي تودع شمس الغروب ، وزهرة اخرى متفتحة تطل على الجانب الذي يواجه الشمس ، ومعناه انها تنظر الى الجانب الذي ستشرق منه الشمس وهو معنى متفائل . فهذه اللوحة جمع الفنان بين المعنى الحزين ، والمعنى المتفائل في عمل واحد . في هذا نجد ان الرمزية تلعب دوراً كبيراً في هذه الاعمال ، خاصة في العمل الكبير الذي يمثل كلب طراودة ، حيث استعان فاتح المدرس بالاسطورة اليونانية المعروفة والتي اساسها حصان طروادة الذي اختبأ به الجنود الغزاة واحتلوا مدينة طروادة بحيلة خبيثة . فهنا يمثل الاحتلال ، او التسلسل الخبيث بكلب اسود بغيض. ويمثل القدس في سورة المسيح ، صورة دامية حمراء في وسط الصورة. والكلب الاسود البغيض في جانب الصورة ، فهنا استعار المعنى الادبي او الاسطوري او الرمزي في تسجيل حدث كبير هز وجدان الفنان . ولكن الحل التشكيلي كما قال الاخ بدر الدين ابو غازي ، وكما قال الاخ ابو صالح الالفي ان الحل التشكيلي هنا ليس حلا دارجا اوعامياً او تقريرياً ، بل هو حل فني على مستوى رفيع ، فيه المعاصرة ، وفيه التفتح الذهني والفكري للفنان ، وهو يعكس فعلا مدى البعد الثقافي الذي حصل عليه الفنان في رحلته الفنية . ففي الأعمال التي نراها في هذا المعنى لانرى هناك ابداً عملا تقريرياً . ولقد يتساءل البعض ، بعض زوار هذا المعرض ، اين هي المعركة بحذافيرها كما نراها العين ، اين هي المعركة التي نراها للجنود في الخنادق والمدافع . وإن الصورة الواقعية الملموسة ، التي نراها في الجبهات .. غير ممثلة في هذه القاعة ، ولذلك يرد على هذا السؤال في هذه القاعة ، هناك انفعال وجداني . نتيجة لحدث كبير هز وجدان الفنان وعبر عنه بصورة شعرية ، بصورة رمزية ، بصورة ادبية تحتوي على جميع المدارس المعاصرة كما قال الزميل الالفي ، نرى هناك التكعيبية ونرى التجريدية والتعبيرية وصور كثيرة من المدارس المعاصرة ، في هذه القاعة ، وهذا يدل على ان الفن المعاصر في سورية بدأ حيث انتهى كثير من البلاد الاخرى ، بدأ وخطا الخطوات الاولى مع الحركات المعاصرة التي تسري في العالم في الوقت الحاضر ، وهو فن متطور وليس متخلفاً .

كمال الجويلي :

سأستعرض أعمال الفنانين السوريين العارضين باختصار :

نشأت الزعبي : يعرض لوحات نحس فيها بالتعبير الدرامي المترابط ، نحس بالبناء المتكامل ووحدة اللون ، وان كان من احساس لا اقول متشائماً ، ولكنه إحساس عميق بالواقع القاتم وبمرارة الواقع .

الياس زيات : نرى ايضاً رؤى شاملة عميقة . نشعر بالتكامل في التكوين الذي يقدمه ، يقدم لوحة هي (عودة الزيتون) .

غسان السباعي : (ليلة صيف) و (كفر قاسم) نحس فيها بالرواية المركزة للموضوع من خلال الاهتمام الاساسي بالكتلة وبمدى ترابط التكوين .

خزيمة علواني : لوحته « فدائية » نفس الشحنة ، نفس التعبير الدرامي ، الجانب الدرامي الشائع جداً مترابط وموجود في معظم الاعمال واكثرها نتيجة ارتباط الفنان بالواقع والذي ينعكس من وجدانه مع وضوح الطابع المسرحي والزخرفي عنده .

اسماء فيومي : تقدم لوحة واحدة هي « القدس » اعتبرها نموذجاً للتجريد الموضوعي ، بمعنى انها لم تتخل عن اسلوبها المعاصر ، ولكنها استطاعت في نفس الوقت ان تربط وجدانها الحي بالموضوع من خلال استخدام نسمة صغيرة جداً او ضئيلة ، في العمل الكبير هي رمز لاحدى قباب القدس ، الى جانب مجموعة اللونيات بالتشكيلات الهندسية المحيطة بها ، التي تعطي الاحساس الشامل بآثار النكسة وبآثار المعركة وبالوجدان العربي تجاه الاحداث .

ممدوح قشلان : ماذا بعد النكبة؟ والنكسة.. واطفال بلا منازل.. ثلاث لوحات، نجد ان لوحة (اطفال بلا منازل) ارتبطت بطبيعة الرواية وبأسلوب اكتسب خبرة كبيرة من خلاله الفنان ، تركز على الوجوه وعيون الاطفال بحيث جاء العمل متكاملا بلا صوت مرتفع ، بلا صراخ ، واني اضعها في المكان الاول ، بالنسبة للوحات الثلاث ، كما اضع لوحة ماذا بعد النكبة في المرتبة الثانية ، اما اللوحة الثالثة فهي لا تقل جودة في التشكيل ، في المعالجة التكوينية ، عن غيرها ، ولكن الوانها فيها مزيد من ارتفاع الصوت او الخطابية الى حد كبير .

فاتح المدرس : يقدم لوحتين ، اعتقد ان لوحة « سر الاطفال والعدوان » من انجح لوحات هذا المعرض ، الارضية حمراء ، اللون الاحمر نعرف انه لون صارخ ، ولكنه من خلال هذه المعالجة ، من خلال التوازن بين القاتم واللون الحي هناك توازن كبير جداً ، وقدرة على اعطاء شحنة عاطفية وجدانية كبيرة جداً يمكن ان تغني عن كتاب او مسرحية ، او عمل ملحمي كبير . وهنا يستخدم التجريد ويستخدم التشخيص بشكل حذر جداً ، بحيث انه يحدث توازناً ، لا يجعل هناك غرابة في عناصر اللوحة . اما لوحته الاخرى فهي لا تقل قدرة في المعالجة ، وان كانت كبيرة ، واخذت الطابع الزوائي الى حد ما بحيث ان المشاهد يحس انها مفتوحة رغم كبرها على اللوحة الاخرى ، الا ان المشاهد يحس انها تفصيل من عمل حائطي كبير جداً .

خالد المز : لوحة واحدة من وحي النكسة ، من خلال رؤية ، فانه يقدم لنا نوعاً من النصب التذكاري ، رؤية حية ، رؤية لا تخلو من الامل في المستقبل .

نعيم اسماعيل : له ثلاث لوحات . هذه اللوحات نرى فيها الرؤية الاسطورية للشكل والموضوع ، وهو يستخدم في احداها الخط الزخرفي ، وفي لوحة أخرى يستخدم الاسود والابيض ، بشكل يمتزج فيه التشخيص بالتجريد ، وفي اللوحة الثالثة ، يذكرنا رغم ما فيها من تشخيص بالأعمال السيريالية ، وهي الرواية الخيالية (لوحة آثار على الساحل) التي نسميها الى حد ما حالمة ، ولكن من خلال الحساس درامي عميق جداً .

اللون هنا يوحي الى حد كبير جداً بالتفاؤل ، وباحساس بأن التاريخ يمتد ولا يمكن ان يتوقف من خلال نكسة او اي مأساة تعترض الشعب ، اي شعب في مرحلة من مراحل الحضارة .

محمود حماد : له لوحتان . ويستخدم فيها اسلوب (الكروكي) السريع الانفعالي . يذكرنا هنا ببعض المدارس التقليدية الايطالية . نحس أيضاً انه لم يتكلف شيئاً ، هو يمثل فعلاً الرؤية السريعة التأثرية التي تعتمد على التلخيص ، يشحن بها ايضاً او يقدم شحنة وجدانه من خلال التعبير عن اللاجئين ، ومن خلال الموضوع الآخر (الأطفال) ، من خلال حلمه او خياله في المستقبل لهؤلاء الأطفال .

غازي الخالدي : له لوحتان : (الفدائيون) و (داخل الأرض المحتلة) . نلاحظ في اعماله ظاهرة نستطيع القول ان لها بعدين : نفسي وتشكيلي . اما النفسي

فهو ايحائي ، ويمثل الترابط بين الأشخاص ، فلا ترى شخصاً منفرداً ، الثنائية موجودة في الانسان الذي يرسمه ، ولا نقول انسان وظله ، ولكن الانسان وزميله ، ورفيقه في الحياة ، وايضاً من خلال تكوين فيه الوحدة اللونية والمعالجة التي فيها الكثير من السيطرة على سطح اللوحة .

لبيب وسلان : لوحته الوحيدة « مقاومة » . الواقع أنها رغم أن موضوعها قد يبدو مباشراً ، ويذكرنا بالتعبير العربي الذي يقول فيه ان الانسان بالنسبة للانسان كالبنيان المرصوص المترابط ، نحس ان الوجوه مترابطة بجانب البناء ، الا انه في نفس الوقت يغفل شحنة شعوره ، فنرى الجانب الامامي من اللوحة فيه قتامة شديدة ، وفيه فراغ بعكس الى جـــانب الترابط نوعاً من التحذير بان هناك قلقاً وتعبيراً عن محاولة تركيز الشعور بان لايكون عاديا او شكلياً ... أي أن لايكون الشعور مجرد كلمة تقال ..

صبحي الشاروني :

زملائي غطوا معظم الجوانب الهامة ولكن هناك نقطة صغيرة يثيرها هذا المعرض وهي مسألة تبادل المعارض بين الدول العربية ، ثم دور المعارض في البلاد الخارجية ، وهذا المعرض من المقرر انه بعد عرضه في القاهرة ان يسافر الى اوروبا ، ليقام في بعض الدول ، يخيل لي ان هذه فرصة طيبة من اجل مناقشة نوعية الاعمال التي يمكن ان تؤدي دوراً بالنسبة للمعركة في الدول العربية من ناحية ، وفي الدول الاوربية من ناحية اخرى وانا في تقديري ان الاعمال التي تؤدي دورها في الدول العربية مختلفة تماماً عن الاعمال التي تؤدي دورها بالنسبة للدول الأوربية .

ونفس هذه المشكلة تواجه الاعمال الفنية المصرية ، فنوع الاعمال التي تحتاجها الدول العربية ، ونوع التبادل الثقافي الذي لابد ان يتمشى فعلاً مع ثقافة الشعب الذي هو موجهة اليه ، ودرجته مها كانت بسيطة ؛ صحيح ان هذا المعرض فيه نوعيات مختلفة ، اعمال تنتمي الى التجريد واعمال تنتمي الى الاسلوب المسرحي والزخرفي في عرض القضية ، يعني ان المعرض يحتوي على اتجاهات من اقصى اليمين الى أقصى اليسار بالنسبة للعمل الفني طبعاً .

ليست كل هذه الاعمال يمكن ان يستوعبها الجمهور العربي في مصر ، وكذلك ليست كل هذه الاعمال يمكن ان يستوعبها المجتمع الاوربي ..

ولكننا نحب الآن ان نناقش دور المعرض .. واهميته في كونه معرضاً متنقلاً .. ولا شك ان تنقله وامثاله بين البلاد العربية والاوربية سيحقق الكثير للقضية العربية حيث تؤدي دوراً دعائياً واعلامياً في البلاد العربية ، وتوضح للشعوب الاوربية اننا شعوب متاصلة ، واننا لسنا بمجرد حضارات قديمة منقطعة الصلة بعالم اليوم ، وانما حضارتنا متصلة ، وثقافتنا قادرة على مخاطبة كل المثقفين بنفس لغتهم .

والواقع ان مثل هذا الدور الهام للمعارض المتنقلة يمكن ان يؤدي اكبر الادوار لو احسن اختيار مايناسب كل بلد وكل شعب .

نحن نريد ان نوسع هذا المعرض ، ومن الممكن ان نجد الاعمال التجريدية التي يمكن ان تنفر الجمهور المحدود عندنا الذي يدخل هذه القاعة في حين انه بالنسبة البلاد الاوربية مطلوب ان تبدو لهم ، او تظهر لهم معنى تقدمنا التقني في الفن ، لأن الفن هو الضرورة الحضارية لنا هناك . وهم يحكمون على البلد التي تعرض اعمالاً فنية من خلال هذه الاعمال ومن خلال مستواها التقني .

فالاعمال التجريدية اكثر ملاءمة لعرضها في البلاد الاوربية من البلاد العربية . ان وزارة الثقافة السورية امسكت العصا من الوسط وحاولت ان تنوع في المعرض ، واستطاعت فعلاً ان تجعل الجميع يقولون عن المعرض بانه جيد بل وممتاز ، لأنه استوعب كل الاتجاهات ، واستطاعت أن تعطي لكل مايريده ويعجبه ، ونفس الحكاية سيحصل في الخارج .

عبد المنعم القصاص :

لفتت نظري كلمة قالها الاستاذ أبو صالح الالفي وهي واجب الفنان تجاه الجماهير وهذه مشكلة ، أتصور انه لابد من طرحها على كافة الفنانين العرب .

ماهو المطلوب من الفنان في مرحلة معينة بالنسبة لمجتمع عربي لم يصل بعد الى المستوى الحضاري الموجود في اوروبا ؟ أريد ان اقول ان كلامي غير منصب على الاتجاهات الموجودة ، انما أريد ان اقول اننا نريد ان نصل الى الجمهور ، باسلوب حضاري ملائم له ، بحيث نكون متقدمين عنه خطوتين ولا نقطع الصلة مابيننا وبينا تماماً ، كيف نوصل له افكارنا واحساسنا بالموضوع المطروح من غير مابيقى فيه هوة واسعة كبيرة مابيننا وهذا الواجب صعب ، ويحاجة الى محاولات كثيرة من الفنانين

العرب في المنطقة كلها ، وأن هذه المحاولة موجودة ، محاولة ايجاد فن قومي بإسلوب عصري . سواء نلاحظه في المعارض التي تقام في مصر أو المعارض التـي تأتي من الدول العربية مثل معرض « كالا اسحق ابراهيم » الفنانة السودانية ، أو معرض الفنانين الكويتيين .

ان الحركة الفنية متشابهة في البلاد العربية كلها وظروف نعيشها ايضاً متشابهة ونلاحظ مثلاً إن عمر الحركة الفنية في سورية في حدود ربع قرن ، وهنا عندنا نشأت حركة فنية تشكيلية مثلها تماماً ، لقد كانت العين الخاصة بالفنان هي عين اجنبي ، عين سائح يرى الفلاحة ، والمراكب والقهوة البلدي ، والتحطيب ، وهذا أيضاً كان موجوداً في سورية ... ولا أريد ان اقول ان الموضوعات الاجتماعية لم تكن مطروحة في ذلك الحين ، انما كانت موجودة بشكل اجتماعي او بشكل فردي ، لقد استطاع هـذا الاتجاه أن يفرض نفسه ، واصبح اليوم الفن التشكيلي يقول كلمته في الظروف المختلفة المحيطة في المجتمع ، سواء في البناء أو التعمير ، واختفت فعلاً عين السائح ، واصبح الفن يقول كلمة ، لها مدلولها ، ولها وقعها ، سواء للمجتمع او للجماهير . لها قيمتها ، تتساوى بالضبط مع الادب والموسيقى وحتى الاغنية ..

وهذا الذي اردت ان الخصه ، واخيراً اريد طرح فكرة صغيرة جاءت من خلال حديث الاخ صبحي الشاروني وهي موضوع ضرورة تبادل المعارض بين الدول العربية . ونحن نقترح ان نفكر جدياً ان نحاول إقامة اتحاد للفنانين العرب ، وهذا مايتيح الفرصة لتبادل الخبرات والزيارات ، لا اعرف اذا كانت هذه الفكرة سابقة لأوانها .. ولكنها هامة وضرورية وقد اثارها هذا المعرض بشكل ملح تماماً ... فلماذا لاتناقشها ؟ وليكون هذا الاتحاد الجديد ثمرة من ثمرات هذا المعرض للفنانين السوريين . ويكون قد اعطى أبعاده كاملة .

غازي الخالدي :

استطاع الفنانون السوريون ان يعيشوا التجربة القومية بكامل ابعادها ليعبروا من خلال الاساليب التشكيلية الخاصة بكل فرد على حده عن موقفهم تجاه العدوان ، وتجاه القضية الفلسطينية ، واقعها ، ومستقبلها .

وقد استفاد الفنانون السوريون من جميع الدراسات التي اتيحت لهم في مصر ،

والدراسات التي اجروها في سورية ، للتراث الفني الخالد .. فتأثروا بشكل ما ، بهذا التراث ، فكان بمثابة أرضية حضارية لكل أعمالهم ..

كما أن الفن العربي السوري قد مر بمراحل عديدة خاصة بعد العدوان ، بحيث يمكننا ان نقول بكل اطمئنان ، بأن فناً حضارياً له مقومات قومية أصيلة بدأ يظهر ويتبلور بعيداً عن اللهجة الخطابية المباشرة ، كما أن المعالجة التي لجأ اليها الفنانون في اساليبهم المختلفة اكدت ان المضمون لم يكن في أي وقت من الأوقات يحده شكلاً ما أو اسلوباً معيناً ، فقد مارس الفنانون تجاربهم بحرية تامة ، فالتجريد والواقعية ، والتعبيرية، والسيريالية ، اتجاهات مختلفة استطاع الفنان من خلالها ان يقول رأيه وموقفه من القضية الفلسطينية .

فيما يتعلق بكلمة الأخ السيد صبحي الشاروني وقوله بأن اوروبا قد تفضل التجريد اكثر من غير التجريد ، اقول إن اوروبا تريد أن ترى فننا وليس فنها ، تريد أن ترى صدق الفنان العربي السوري وهو يعبر عن قضيته، وبأساليبه هو ،لا كما يقول الأخ صبحي ان ما يعرض هنا قد لا يعرض هناك ، وهذا مفهوم غير سليم ، لأنه لا يوجد فن محلي ، وفن للتصدير ، الفن واحد ، والقضية تطرح من خلال وجود فن او لا فن على الاطلاق . كما اننا لا نستطيع أن نقول للفنان عندنا ان يرسم لوحات للدول العربية ، ولوحات للدول الاجنبية ، وهذا أساسه الحرية الكاملة التي يتمتع بها الفنان للتعبير عن آرائه بالشكل الذي يريده هو .

اما بالنسبة للموضوع الذي طرحه الأخ عبد المنعم القصاص حول تشكيل اتحاد عام للفنانين التشكيليين في الوطن العربي ، فاني ازف له وللاخوة الاشقاء في مصر ، نبأ ظهور اول نقابة للفنون الجميلة في القطر العربي السوري ، تمثلت جميع العاملين في الفنون التشكيلية والتطبيقية ، وقد قدمت الى السيد وكيل وزارة الثقافة في القاهرة نسخة عن نظامها للاستئناس به من اجل وضع نظام لنقابة مماثلة في مصر ... ويمكننا من خلال هاتين النقابتين ان نضع نواة لاتحاد عربي فني عام يضم جميع الفنانين في الوطن العربي ... لتوحيد الجهود لحماية مصالح الفنانين ، وتأمين مستقبل افضل لهم ، ولسمعة الفن ، ولتأكيد دوره الايجابي في المعركة المصيرية التي نعيشها في وطننا اليوم .